ميسرة الفتى فى قلعة رباح [١] الواقعة فى جنوبها استعداداً لمحاصرتها ، فخرج عندئذ أهل طليطلة لقتال ميسرة ، فظهر عليهم وقتل منهم مقتلة عظيمة ، فارتدوا إلى داخل المدينة ، وعادوا إلى الاعتصام بأسوارها المنيعة . وفى العام التالى (سنة ٢٢٠ هـ) سار إليهم عبد الرحمن بنفسه ، فثبتت فى وجهه المدينة الثائرة ، فترك الجند فى قلعة رباح ، وسار إلى الغرب فى أحواز ماردة ، ليطارد سليمان بن مرتين زعيم البربر ، وكان بعد أن تخلف عن زميله محمود بن عبد الجبار ، يتزعم الثورة فى تلك الأنحاء ، فحاصره عبد الرحمن ، وحدث أن قتل الثائر فى سقطة مميتة عن جواده ، فانفضت جموعه وخبت ثورته . وسير عبد الرحمن فى العام التالى حملة أخرى إلى طليطلة بقيادة أخيه الوليد بن الحكم ، فضرب حولها الحصار الصارم ، واستمر على حصارها حتى جهد أهلها ، وضاقوا بالحصار ذرعاً ، ثم هاجمها بعد ذلك واقتحم أسوارها ، وخضعت المدينة الثائرة ، بعد أعوام عديدة من من فتن وثورات مستمرة ، كان يغذيها خلالها روح التمرد المتأصل فى شعبها ، ودسائس البربر والنصارى من أهلها ، وتحريض الفرنج والجلالقة ، وكان خضوعها فى رجب سنة ٢٢٢ هـ (٨٣٧ م) [٢] .

واستطاع عبد الرحمن بعد إخماد الثورة فى مختلف النواحى ، أن يستأنف أعمال الجهاد والغزو ، فعكف فى الأعوام التالية على تسيير الصوائف أو حملات الغزو الصيفية متعاقبة فى كل عام إلى الشمال ، تارة إلى أطراف الثغر الأعلى ، حيث تشتبك مع الفرنج ، وتثخن فى أراضيهم ، وتارة إلى ألبة والقلاع ، حيث تغير على أراضى البشكنس ، أو أطراف مملكة ليون (جليقية) ، وتولى عبد الرحمن قيادة الصائفة بنفسه إلى جليقية فى سنة ٢٢٥ هـ (٨٤٠ م) . وفى سنة ٢٢٧ هـ (٨٤٢ م) سار عبد الرحمن إلى الشمال ، وكان موسى بن موسى بن قسىّ والى تُطيلة [٣] من أعمال الثغر الأعلى (أراجون) ، قد خرج عن طاعته وتحالف مع غرسية [٤] أمير نافار ، وأوقع الإثنان بجند الأمير فى الثغر ، وعاثا فى أنحائه .

---

(١) ومقابلها بالإسبانية **Calatrava**

(٢) راجع ابن الأثير ج ٦ ص ١٤١ و ١٥٠ و ١٥٣ و ١٦١ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٨٥ و ٨٦ و ٨٧ .

(٣) وهى بالإسبانية **Tudela**

(٤) وهى بالإسبانية **Garcia**

وتقول الرواية فى سبب نقض موسى الطاعة ، أن عبد الرحمن كان قد ولى عبد الله بن كليب على سرقسطة ، وعامر بن كليب على تُطيلة ، فأغار عبد الله على أموال ينقة بن ونقة أخى موسى لأمه ، واعتدى عامر بن كليب على أملاك موسى وخيله ، وانتهب أمواله ، وخرب حدائقه ، فعندئذ أعلن الخروج والعصيان ، وكان ذلك فى سنة ٢٢٦ هـ[١] . فسار عبد الرحمن إلى بلاد البشكنس (ناڤار) ، وتوغل فيها حتى بنبلونة ، وعاث فيها نسفاً وتخريباً ، وسبى من أهلها جموعاً كثيرة .

ولا بد لنا هنا من التعريف بهذا الزعيم الثائر موسى بن موسى ، إذ هو سوف يحتل منذ الآن فصاعداً ، هو وأبناؤه ، حيزاً كبيراً فى تاريخ الثورة على حكومة قرطبة . فهو وفقاً لابن حيان ، وابن حزم ، موسى بن موسى بن فرتون ابن قسىّ (أو القسوى) . وكان جده الأعلى ، الكونت قسىّ Kasi من أشراف القوط ، وكان وقت الفتح «قومس» Comes الثغر الأعلى ، فلما غزا المسلمون أراضيه سار إلى الشام ، واعتنق الإسلام على يدى الخليفة الوليد بن عبد الملك ، وذلك لكى يحتفظ فى ظل الغزاة الجدد ، بأملاكه وسلطانه الإقطاعى ، واعتبر بإسلامه على يدى الخليفة من مواليه ، وانحاز بطريق هذا الولاء إلى جانب المضرية . وعدا أولاده وأحفاده من بعده زعماء المولدين فى الثغر الأعلى . وكانوا من أنجاد الزعماء والفرسان ، يمتازون بالجرأة والإقدام والشجاعة ، ويعتزون دائماً بأصلهم القوطى النصرانى ، وكانت لهم دائماً علائق مصاهرة مع جيرانهم من الأمراء النصارى ، من البشكنس وغيرهم ، وكان إسلامهم فى الواقع مظهراً سطحياً لاغتنام السلطان والنفوذ ، وكانوا لايشعرون بالولاء نحو حكومة قرطبة ، يصانعونها متى وجبت المصانعة ، احتفاظاً بمركزهم وسلطانهم فى الثغر ، ولكنهم لايحجمون عن انتهاز أية فرصة للثورة عليها ، ومحالفة أعدائها من النصارى . وسنرى فيما بعد أى دور خطير قامت به هذه الأسرة المتمردة الخطرة ، فى ثورة المولدين الكبرى على قرطبة [٢].

---

(١) نصوص عن الأندلس للعذرى فى الأوراق المنشورة من كتاب « ترصيع الأخبار » ص٢٩

(٢) راجع المقتبس لابن حيان ، الجزء المطبوع بعناية المستشرق أنتونيا ص ١٦ و ١٧ . وكذلك جمهرة أنساب العرب لابن حزم (القاهرة) ص ٤٦٧ و ٤٦٨ ، حيث يقدم لنا شجرة كاملة لنسبة بنى قسى ، منذ جدهم الأعلى حتى أواخر القرن الثالث الهجرى .

وفى العام التالى سار عبد الرحمن إلى الشمال مرة أخرى ، ومعه ولداه المطرِّف ومحمد ، واستخلف ولده المنذر على قرطبة ، وبدأ عبد الرحمن بمحاصرة تُطيلة حتى أخضعها ، ثم زحف على بلاد البشكنس مرة أخرى ، ولقيه غرسية وحليفه موسى بن موسى فى جموع كبيرة ، فهزم البشكنس وحلفاؤهم هزيمة شديدة ، وقتل منهم عدد جم ، وفر موسى وحليفه غرسيّة جريحين ، وسار عبد الرحمن إلى بنبلونة فأثخن فيها وخربها ، واضطر البشكنس إلى طلب الأمان والصلح ، وعاد عبد الرحمن إلى قرطبة ظافراً بعد أن وطد هيبة الإسلام وحكومته فى تلك الأنحاء (٢٢٨ هـ — ٨٤٢ م)[١] . ولم يكن لهذه الغزوات فى الواقع نتائج مستقرة ، وكانت تقصد فى الغالب إلى إيقاع الرعب فى قلوب نصارى الشمال ، وتخريب بلادهم ، وإنهاك قواهم ، حتى يلزموا السكينة ، ويكفوا عن عدوانهم وعيثهم فى أراضى المسلمين .

وفى نفس هذا العام الذى سحقت فيه ناڤار وخربت (٨٤٢ م) ، توفى ألفونسو الثانى الملقب بالعفيف بعد أن حكم مملكة ليون (جليقية) إحدى وخمسين عاماً ، إذ تولى الملك فى سنة ٨٩١ م ، أيام الأمير هشام بن عبد الرحمن ، وخلفه ولده راميرو الأول ، أو رذمير كما تسميه الرواية العربية . وقد اقتصرنا فيما تقدم على أن نسرد من أخباره وأخبار مملكته ، ما له صلة بسير الحوادث فى اسبانيا المسلمة ، أما أخبار مملكة ليون الداخلية ، فسنفصلها عند الكلام على تاريخ المملكة النصرانية الشمالية .

* * *

وفى عهد عبد الرحمن بن الحكم ، عرفت الأندلس لأول مرة خطراً جديداً لم يسبق لها أن عرفته أو توقعت حدوثه : ذلك هو خطر الغزوات النورمانية البحرية .

كانت سيادة البحار الشمالية منذ بداية العصور الوسطى فى يد « الڤيكنج » Vikings أو النورمانيين ، وكان أولئك النورمانيون أمة بحرية عريقة ، تمرست منذ غابر العصور فى ركوب البحر ومقارعة أهواله ، ووطنهم الأصلى هو اسكندناوة ، وربما دانماركه ، وشواطئ ألمانيا الشمالية ، ولذا عرفوا بالنورمانيين

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٨٨ و ٨٩ ؛ وابن الأثير ج ٦ ص ١٦٧ و ١٧٢ و ١٨٠ ، ومخطوط ابن حيان ص ١٨٥ .

أى أهل الشمال(١) . واشتهر النورمانيون بجرأتهم فى جوب البحار الشمالية ، وبراعتهم فى مغالبة قسوة الجليد وأهوال اللجة والطبيعة ، ولم يأت القرن الثامن الميلادى حتى كانت حملاتهم البحرية الناهبة ، تثخن فى شواطئ الجزر البريطانية . وكان جدب الوطن ، وشظف العيش ، وروح المخاطرة ، تدفع بهم دائماً إلى عرض البحار ، وتجعلهم خطراً دائماً على الشواطئ والثغور المجاورة . وفى أوائل القرن التاسع وصلت حملاتهم الناهبة إلى شواطئ بلاد الفرنج (فرنسا) ، ثم نفذت جموع منهم إلى شمال فرنسا . وغزوا مصب اللوار ومصب الجارون ، وأنشأوا لهم عدة مراكز وقواعد فى تلك الأنحاء .

وهنا بدأ تطلع النورمانيين إلى اسبانيا . والأندلس بنوع خاص . وكانت نعماء الأندلس ، وما اشتهرت به من الخصب والغنى ، تثير جشع أولئك الغزاة المغامرين ، ولم تكن الأندلس تحسب حساباً لذلك الخطر الداهم المستتر معاً ، لأنها لم تعرف النورمانيين من قبل ، ولا تعرف لهم بقربها أرضاً أو مستقراً . وتطلق الرواية الإسلامية على أولئك الغزاة المجهولين إسم «المجوس» ، بيد أنها تعرفهم أيضاً «بالأردمانيين» أى النورمانيين ، وقد ترجع هذه التسمية إلى أن النورمانيين كانوا فى العهد الذى عرفهم فيه عرب الأندلس لأول مرة « مجوساً » أى وثنيين لم يعتنقوا النصرانية بعد . وكان ظهور النورمانيين فى المياه الإسبانية ، لأول مرة فى سنة ٨٤٣ م . ففى تلك السنة خرج أسطول نورمانى من نهر الجارون وعاث فى شواطئ مملكة جليقية ، فبعث ملكها راميرو (رذمير) إليهم جيشاً ردهم وأحرق كثيراً من سفنهم ، فانقلب النورمانيون عندئذ إلى مياه إسبانيا الغربية والجنوبية ، يجوبونها فى طلب السبى والغنيمة ، واقتحموا شواطئ المملكة الإسلامية (الأندلس) فى غزوتهم الأولى .

وتضع الرواية الإسلامية هذه الغزوة فى سنة ٢٣٠ هـ ، وتحدثنا عنها بإفاضة ، فتقول لنا إن أسطولا مجوسياً (نورمانياً) قوامه زهاء ثمانين مركباً ، رسا فى مياه أشبونة(٢) فى أواخر سنة ٢٢٩ هـ (يوليه أو أغسطس سنة ٨٤٣ م) ، فكتب عاملها وهب الله بن حزم إلى عبدالرحمن بن الحكم ينبئه بالخطر . فكتب عبد الرحمن

---

(١) وهى بالإفرنجية Norsmen أو Normanen

(٢) لشبونة Lisboa عاصمة البرتغال الحديثة .

إلى عمال الثغور بالتحوط والأهبة . ولبث النورمانيون فى مياه أشبونة ثلاثة عشر يوماً التحموا خلالها مع المسلمين فى عدة وقائع ، ثم ساروا بأسطولهم جنوباً إلى قادس ، ثم شذونة ، ثم اخترقوا النهر الكبير (الوادى الكبير) حتى إشبيلية . وكان ظهور هذه السفن الغازية ، وأولئك الغزاة الشقر فى قلب الأندلس ، مفاجأة مروعة ، ولم يكن للأندلس يومئذ أسطول قوى تدفع به شر الغزوات البحرية ، ولم تتخذ فى الثغور لردها أهبات خاصة . ونزل النورمانيون فى ظاهر إشبيلية فى أوائل المحرم سنة ٢٣٠ هـ (سبتمبر سنة ٨٤٣ م)[١] وكانت يومئذ دون أسوار تحميها من العدوان المفاجىء ، وكانت مفاجأة مروعة لأهلها ، الذين لم يتخذوا أية أهبة خاصة للدفاع عن أنفسهم . وعبثاً حاول المسلمون رد الغزاة . واقتحم النورمانيون إشبيلية وأمعنوا فى أهلها سفكاً ونهباً وسبياً ، وعاثوا فيها مدى سبعة أيام أشنع عيث ، ثم غادروها وعسكروا فى ظاهرها ، فى قرية طلياطة الواقعة غربى إشبيلية . وفى تلك الأثناء بعث الأمير عبد الرحمن قوات من الخيل على عجل لإنجاد إشبيلية بقيادة عبد الله بن كليب ومحمد بن رستم ، وجعل على قوات قرطبة حاجبه عيسى بن شهيد ، وهرع المسلمون من كل صوب للجهاد ورد الغزاة . وقاد القوات المتحدة نصر الخصى ، وتلقى النورمانيون المدد فى سفن جديدة قدمت إليهم ، ونشبت بين الفريقين فى البداية بضع معارك محلية ، تفوق فيها الغزاة . وفى الخامس والعشرين من صفر سنة ٢٣٠ هـ ، نشبت بينهما معركة حاسمة تجاه قرية طلياطة ، وكان على رأس قوات المسلمين محمد بن رستم ، فهزم النورمانيون بعد قتال عنيف ، وقتل منهم نحو ألف وأسر نيف وأربعمائة ، وأحرق من سفنهم ثلاثون ، وكان قائدهم بين القتلى ، وارتد النورمانيون إلى سفنهم ، وتحصنوا بها ، وقتل المسلمون أسراهم أمام أعينهم ، وصلبوا على جذوع النخل ، ثم أقلعت سفن الغزاة مرتدة إلى الجنوب ، والمسلمون من ورائهم يطاردونهم ، ويفتدون أسرى المسلمين منهم بمختلف السلع ، وانتقم النورمانيون لأنفسهم أثناء ارتدادهم بالإغارة على لبلة وباجة ، ثم انتهوا ثانية إلى ثغر أشبونة حيث غادروا مياه الأندلس مع باقى سفنهم ، بعد أن لبثوا بضعة أسابيع يبثون فيها الرعب والروع .

---

(١) يضع ماريانا غزوة النورمانيين الأولى لإشبيلية فى سنة ٨٤٧ م (راجع تاريخه العام — الترجمة الفرنسية — ج ٢ ص ٨٤) .

واستطالت غزوة النورمانيين ، منذ نزولهم بأرض إشبيلية ، إلى أن تمت هزيمتهم وإقلاعهم ، إثنين وأربعين يوماً ، عانى فيها المسلمون محناً وشدائد كثيرة ، ارتجت لها ربوع الأندلس كلها . فلما انقشعت الغمة . بادر الأمير عبد الرحمن فبعث بالكتب إلى سائر الآفاق معلنة هذا النصر على العدو المغير ، وبعث بها بالأخص إلى أمراء العدوة ، ومعها طائفة من رؤوس أكابر النورمانيين القتلى . وأغدق الأمير ثناءه وصلاته على نصر الخصى فتاه الأثير لديه ، وكان قائد قواته العام فى تلك المعركة الكبرى(١) .

وكان لهذه المفاجأة المروعة أثرها فى حمل حكومة الأندلس على الاهتمام بأمر الأسطول والتحصينات البحرية ، فابتنى عبد الرحمن حول إشبيلية سوراً ضخماً ، وأنشأ بها داراً عظيمة للصناعة ، واهتم بصنع السفن الحربية الكبيرة ، وحشد لها المقاتلة من شواطئ الأندلس . فكانت نواة الأسطول الأندلسى الكبير الذى بلغ فى عهد عبد الرحمن الناصر زهاء مائتى سفينة . وعلى أى حال فقد أدرك النورمانيون أن الأندلس لم تكن فريسة هينة . وتحدثنا الرواية الإسلامية بأنهم عقب هزيمتهم فى هذه الغزوة الأولى سعوا إلى الصلح مع أمير الأندلس ، وبعثوا رسلهم فى طلب السلم والمهادنة ، وأن الأمير الأندلسى عبدالرحمن بعث كاتبه يحيى الغزال إلى ملكهم ليرد السفارة ، وهى رواية سنعود إلى تفصيلها(٢) .

ولم يمض قليل على رد الغزاة النورمانيين ، حتى بادر عبد الرحمن إلى استئناف الغزو ، فسير بالصائفة إلى الشمال جيشاً بقيادة ولده هشام ، ومعه الوزير عيسى ابن شهيد . فاخترق قشتالة القديمة ، وسار صوب ناقار وغزا بنبلونة ، ووافاه هناك موسى بن موسى والى تطيلة ، فقدم طاعته ، ومنح الأمان ، وأقر على ولايته . وفى العام التالى سير عبد الرحمن بالصائفة قواته مرة أخرى إلى الشمال ،

---

(١) راجع فى تفاصيل هذه الغزوة ، البيان المغرب ج ٢ ص ٨٩ و ٩٠ ، والعذرى فى الأوراق المنشورة من « ترصيع الأخبار » ص ٩٨ — ١٠٠ ؛ وفى النويرى : نهاية الأرب (القسم الخاص بتاريخ الأندلس) وقد نقل دوزى روايته ؛ Recherches : II. p. 337-338 وكذلك فى الملحق Appendice 37 ؛ وفى ابن القوطية (ص ٦٣ — ٦٧) ؛ وابن الأثير ج ٧ ص ٧ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٢٩ . وفى مخطوط ابن حيان عنها تفاصيل كثيرة نقلت عن محمد بن أحمد الرازى وأخيه عيسى ومعاوية بن هشام الشبينسى .

(٢) راجع رواية النويرى المشار إليها فى دوزى : Recherches : App. 37

بقيادة ولده محمد ، فاخترق بسائط جليقية ، وحاصر عاصمتها ليون ، ولجأ النصارى إلى الجبال ، ثم ارتد عنها بعد أن عاث فيها قتلا وتخريباً (سنة ٢٣١ هـ — ٨٤٥ م) . وعصف بالأندلس فى العام التالى قحط شديد ، وهلكت الزروع والماشية ، وقاست البلاد من ويلاته مدى أشهر .

وفى سنة ٢٣٣ هـ (٨٤٧ م) ظهر بالثغر الفرنجى ، فى شمال شرقى إسبانيا ، زعيم يدعى جبين دى تولوز ، وهو فيما يرجح من تسميه الرواية العربية ، غليالم بن برباط بن غليالم ، وكان قد أعلن الخروج والثورة على ملك الفرنج شارل الأصلع ، ووفد فى العام السابق على بلاط قرطبة ، يلتمس التأييد والعون ، فاستقبله عبد الرحمن بترحاب ، وأمده بعونه ، فعاد إلى الثغر وعاث فيه بقواته ، وحاصر برشلونة وخرب حصونها ، وهاجم جرندة ، وكتب عبد الرحمن إلى عامله على طرطوشة عبد الله بن يحيى ، وعامله على سرقسطة عبد الله بن كليب ، فى إمداده وتأييده فى ثورته ضد ملك الفرنج[1]. بيد أنه يبدو من أقوال الرواية الفرنجية أنه وقعت على إثر ذلك مفاوضات بين عبد الرحمن وشارل الأصلع ، انتهت بعقد الهدنة والسلم بينهما .

وفى نفس هذا العام نقض موسى بن موسى بن قسى (القسوى) العهد ، وعاد إلى الثورة ، وعاث فى أحواز تطيلة وطرسونة وبرجة من أعمال الثغر الأعلى ، وظاهره أخوه لأمه فرتون إنيجز (ابن ونقة) أمير بنبلونة ، فبعث إليه عبد الرحمن جند الصائفة بقيادة عباس بن الوليد المعروف بالطبلى ، فطاردته حتى أرهق وأعلن عوده إلى الطاعة ، وقدم ولده إسماعيل رهينة كفالة بولائه ، فقبل عبد الرحمن طاعته ، وأقره على ولايته تطيلة ، ودخل معه فى هذا الصلح أخوه فرتون إنيجز[2]

وفى سنة ٢٣٤ هـ (٨٤٨ م) بعث عبد الرحمن قوة بحرية كبيرة إلى جزيرتى ميورقة ومنورقة وهما أكبر الجزائر الشرقية (جزائر البليار) لغزوهما ، ومعاقبة

---

(١) وردت هذه الرواية فى قطعة مخطوطة أخرى من تاريخ ابن حيان ، عثرت بها فى مكتبة القرويين بفاس ، وحصلت منها على نسخة مصورة حسبما أشرت إلى ذلك من قبل . وهى التى تبدأ حوادثها منذ سنة ٢٣٣ هـ وتنتهى بحوادث سنة ٢٦٧ هـ ، وسوف نقتبس منها منذ الآن فصاعدا فى مختلف المواطن التى تتناول حوادثها . (لوحة ١٨٩ ب من المخطوطة المذكورة) .

(٢) لوحة ١٨٩ ب و ١٩٠ أ من المخطوط المذكور ، وهو يسمى هنا أمير بنبلونة بابن رنقة، وهو تحريف ، والصواب ابن ونقة **Inequiz**

أهلهما لتعرضهم لسفن المسلمين المجاهدين والإضرار بهم ، فأخضعهما المسلمون وأثخنوا فيهما ، وأصابوا كثيراً من السبي ، وبعث أهلهما إلى الأمير يطلبون الأمان ودفع الجزية ، ويتعهدون بالولاء والطاعة ، فأجابهم إلى ما طلبوا . وكانت مياه اسبانيا الشرقية قد غدت منذ عهد هشام مركزاً للحملات البحرية المتجهة نحو الشمال والشرق ، وكان قوام هذه الحملات فى الغالب جماعات من البحارة والمجاهدين ، الذين يجوبون هذه المياه طلباً للغنيمة والسبي ، ويثخنون فى الثغور والجزر النصرانية القريبة . ففى سنة ٨٠٦ م (١٩١ هـ) فى عهد الحكم ، غزت إحدى هذه الجماعات البحرية الأندلسية المغامرة جزيرة كورسيكا (قورسقة) ، فبعث ببين ابن شارلمان ملك إيطاليا أسطولا لقتالهم ، فهزموه واستولوا على كثيرا من الغنائم والسبي . ولم يمض عامان على ذلك ، حتى عاد البحارة المسلمون إلى غزو شواطىء كورسيكا وسردانية ، ثم توالت غزواتهم لها بعد ذلك . وفى سنة ٨٣٦ م (٢٢١ هـ) خرج أسطول أندلسى من ثغر طرّكونة والجزائر الشرقية ، وسار إلى مياه فرنسا الجنوبية ، وهاجم المسلمون ثغر مرسيليا وما حوله من الأراضى وأثخنوا فيها . وكان على عرش فرنسا يومئذ لويس ابن شارلمان ، وكان ملكاً ضعيفاً عاجزاً ، فلما توفى سنة ٨٤٠ م ، اضطربت أحوال المملكة ، وضعفت حماية الثغور ، فانتهز البحارة المجاهدون هذه الفرصة ، وغزوا ولاية بروڤانس عند مصب نهر الرون ، وهاجموا مدينة آرل وخربوها ، ثم توالت غزواتهم فى تلك المياه بعد ذلك ، وكان من أثرها أن قامت مستعمرات عربية كثيرة فى بروڤانس وفى أنحاء أخرى فى جنوب فرنسا وشمال إيطاليا ، وسوف نعود إلى حديث هذه المستعمرات العربية النائية فى قلب أوربا .

وفى سنة ٢٣٧ هـ (٨٥١ م) ، اضطرمت الحرب فى الشمال بين المسلمين والغسقونيين أو الجاشقيين كما تسميهم الرواية الإسلامية وهم فرع من البشكنس ، وكان هؤلاء قد أغاروا على الأراضى الإسلامية المجاورة ، فى قاصية الثغر الأعلى ، فتصدى لردهم موسى بن موسى والى تطيلة ، وكان يومئذ على ولائه لحكومة قرطبة ، ووقعت الحرب بين المسلمين والبشكنس ، فى جنوبى بنبلونة على مقربة من بقيرة ، فهزم المسلمون أولا ، وأثخن قائدهم موسى جراحاً ، ولكنه استأنف المعركة فى اليوم التالى ، وكر على العدو بشدة ، فهزم البشكنس شر

هزيمة ، وقتل منهم عدد جم ، وتسمى هذه الموقعة فى الرواية الإسلامية بموقعة البيضاء ، وهى محلة صغيرة مجاورة لبقيرة(١) .

* * *

وفى أواخر عهد عبد الرحمن ، هبت على نصارى قرطبة ريح شديدة من التعصب ، ولاحت فى الأفق بوادر فتنة دينية واجتماعية خطيرة . ولم يك فى نظم الحكم الإسلامى ، ما يقصد إلى إيذاء النصارى المستظلين بلوائه ، ولم تشذ حكومة قرطبة عن سياسة التسامح الإسلامى المأثور ، ولم تحاول تدخلا فى شئون النصارى الدينية أو تعرضاً لعقائدهم أو شعائرهم ، بل كان النصارى فى قرطبة وغيرها ، أحراراً فى عقائدهم وشعائرهم ، والاحتكام إلى شرائعهم وقضاتهم ، وكثيراً ما تبوأوا مناصب الثقة والمسئولية فى الجيش وفى الإدارة ، وكثيراً ما حاربوا مع إخوانهم المسلمين جنباً إلى جنب ، وكانت أغلبية كثيرة منهم تشتغل بالتجارة فى الثغور والمدن ، ويشتغل عامتهم فى ضياع المسلمين دون إكراه ولا عنت ، وكانت منهم مجتمعات زاهرة رغدة فى قرطبة وغيرها ، بل كثيراً ما بهرتهم الفصاحة العربية فانطلقت بها ألسنتهم ووضعوا بها كتبهم ، وكثيراً ما تخلقوا بأخلاق المسلمين وعاداتهم ، ونهجوا نهجهم فى الحياة الخاصة . بيد أنه كان ثمة فريق آخر من النصارى المتعصبين الذين يرون فى سادتهم المسلمين أجانب غاصبين ، معتدين على دينهم وأوطانهم ، وكان أولئك الغلاة يبغضون إخوانهم من النصارى المعتدلين ، ويرمونهم بالمروق والخيانة ، وكان رجال الدين ، وهم فى الأصل مبعث التعصب ودعامته ، يبذرون بذور الشقاق ، ويضرمون نار الفتنة ، ويوغرون قلوب الغلاة والمتطرفين ، باسم الدين ، وكانوا يبغضون المسلمين أشد البغض ويسخرون من دينهم ونبيهم ، ويجاهرون بهذا التحامل والبغض للنبى العربى وتعاليمه ، ويعتمدون فى معرفتهم للإسلام ونبيه ، على طائفة من الخرافات والأباطيل التى يتناقلها القسس فى كل عصر ومكان . يقول دوزى : « ولم يك ثمة أيسر عليهم ، وقد كانوا يعيشون بين المسلمين من الوقوف على الحقيقة ، ولكنهم كانوا يرفضون أن يستقوا من المصادر التى كانت لديهم ، وكان يسرهم أن يعتقدوا وأن يعيدوا كل الخرافات السخيفة التى أذيعت عن نبى مكة »(٢) .

---

(١) ابن حيان (مخطوط القرويين) لوحة ١٩٣ أ . وبقيرة هى بالإسبانية **Viguera** .

(٢) **Dozy : Hist, I.p. 317 et suiv.** . ويخصص دوزى لهذا البحث حيزاً كبيراً ، وتحمله نزعة من التعصب فى إيراد الوقائع ووصفها ، وهو يعتمد هنا بالأخص على مصادر كنسية معاصرة .

ويقدم إلينا المستشرق سيمونت ، وهو عمدة العلماء الإسبان فى الكتابة عن تاريخ « النصارى المعاهدين » Los Mozárabes التفاصيل الآتية ، عما يصفه بأنه « البطولة التى تذرعت بها النصرانية فى قرطبة فى مقاومة فورات الإلحاد الإسلامى » .

ويرى سيمونيت أن قرطبة كانت من المعسكرات الرئيسية للحرب المدمرة التى شهرها الإسلام على النصرانية . وبالرغم عن أنه يعترف بأن الإسلام لبث مدى قرن يحتفظ بقدر من التسامح نحو المستعربين ، وقت أن كان فى حاجة إلى خدماتهم ومعاونتهم ، فإنه يقول إن الإسلام لما شعر بقوته ، لم يبد تسامحاً إزاء انتعاش الروح النصرانى ، الذى بدا يسيطر على فريق كبير من الشعب النصرانى . ثم يتحدث سيمونيت بعد ذلك عن « المظالم وصنوف الاضطهاد التى كان النصارى يقاسونها ، ليس فقط من عامة أهل قرطبة بل من حكومة قرطبة ذاتها » . ثم يقول : « وقد كانت هذه السياسة منافية للعهود والقوانين التى منحت للوطنيين (الإسبان) أيام الفتح . وقد كان الطغيان الإسلامى شديد الوطأة على ضمائر النصارى الوطنيين وأملاكهم وكرامتهم معاً » .

وينعى سيمونيت على أمراء قرطبة ، أنهم احتفظوا بحقوق وامتيازات ضد النصارى لإخضاعهم ، وأنهم كانوا مثل القوط يدعون لأنفسهم حق تعيين الأساقفة وعزلهم ، وحق عقد المجالس الدينية التى يمثلهم فيها بعض المسلمين أو النصارى المرتدين ، ويسندون وظائف الأساقفة فى أحيان كثيرة إلى رجال من طراز منحط ، يملقون الأمراء ويخدمونهم .

ولم يك استبداد الأمراء أقل وطأة على أملاك المستعربين وثرواتهم ، إذ كانوا حرصاً على سلامتهم يؤدون للخزانة مزايا عظيمة ، فى شكل جزية وضرائب تنبو عن طاقتهم . وقد كان تسامح المسلمين لا يغتنم فى الظروف العادية إلا بالعرق والدم . ثم جاءت الأيام التى كان يقاسى فيها النصارى كل شىء ، ليحتفظوا بحرية دينهم ، وينتزع كل يوم منهم مغارم أكبر ، هذا فضلا عن الضرائب العادية ، وقد كانت فادحة فى ذاتها تفرض عليهم بمختلف الحجج والأعذار .

وقد وصلت هذه المغارم إلى ذروتها فى عصر عبد الرحمن الثانى الأمير الباذخ ، ومحمد الأول الأمير القاسى ، الذى حصل من نصارى قرطبة بواسطة الكونت سواندا على مبلغ مائة ألف « سويلدو » .

ويتحدث سيمونيت بعد ذلك عن تعصب المسلمين ، ويقول إن تعصب العرب ضد الأجانب وامتهانهم لهم ، وصل إلى الذروة فى النصف الأول من القرن التاسع ، وكذا وصل إلى الذروة تزمت البربر الوحشى ، وتزمت الإسبان المسلمين (المولدين) الذين اتخذوا الارتداد عن دينهم سبيلا إلى بلوغ الرخاء ، وكانوا لكى يمحوا ذكرى أصولهم المسيحية ، أشد تعصباً ضد النصارى من المسلمين أنفسهم . كان هؤلاء وهؤلاء يمعنون فى إهانة النصارى واضطهادهم بشتى المظاهر ، ولاسيما رجال الدين والقساوسة ، وكانت موجة هذا الاضطهاد تشتد كلما جاءت الأخبار بانتصار نصارى الشمال ، أو قيام المولدين فى طليطلة أو غيرها .

هكذا يتحدث سيمونيت عن « تعصب » المسلمين ضد رعاياهم وإخوانهم النصارى المعاهدين . ومع ذلك فإن سيمونيت يعترف بأن كثيراً من نصارى قرطبة ، كانوا يخدمون فى الجيش الإسلامى جنداً أو ضباطاً ، وأن كثيراً منهم وصل إلى وظائف هامة فى البلاط والقصر الملكى ، وفى قصور أكابر المسلمين .

ويصف سيمونيت تأثير المجتمع الإسلامى ، وعظمته ولغته وتقاليده ، فى نفوس النصارى فى قوله :

« هذا ، وقد كان يأسر الشباب النصرانى منظر العظمة المادية والحضارية ، التى تفوقت بها قرطبة المسلمة على قرطبة النصرانية ، وما كانت تقترن به هذه العظمة من المظاهر الأدبية والفنية ، التى بثها عبد الرحمن بحبه للشعر والفلسفة والموسيقى .

وكان من مظاهر تأثر الشباب النصرانى أنهم كانوا يكتبون ويتكلمون العربية ، محتقرين دراسة اللغة والآداب اللاتينية ، وهو أمر كان شديد الخطر على وطنيتهم ودينهم .

وفى النصف الأول من القرن التاسع ، لم تكن اللغة والآداب العربية فقط ، بل وكذلك الأفكار والتقاليد الإسلامية ، قد انتشرت بين المستعربين الإسبان . وهذا ما تشير إليه وثيقة هامة كتبها نصرانى قرطبى معاصر هو ألبرو القرطبى Alvaro Cordubense فى سنة ٨٥٤ م عنوانها Indicalo Luminoso ، وفيها يصف بقوة وبلاغة ، الذعر الذى أصاب « الأشراف الكرماء البواسل الذين كانوا يحتفظون بالعاطفة المسيحية والوطنية الإسبانية » ، وكيف أن شباناً من

النصارى يمتلئون حياة وقوة وفصاحة ، يتقنون اللغة العربية ، ويبحثون بشغف عن الكتب العربية ويدرسونها بعناية ، ويمتدحونها بحماسة ، هذا فى حين أنهم يجهلون جمال الآداب الكنسية ، ثم يبدى ألمه من أن النصارى يجهلون شريعتهم ولغتهم اللاتينية ، وينسون لغتهم القومية[١] .

وهذه التفاصيل التى يقدمها إلينا العلامة سيمونيت عن أحوال المجتمع النصرانى فى قرطبة ، هى تفاصيل مفيدة قيمة ، ولكنها تنم عن كثير من التحامل ، وتصور وجهة نظر الكنيسة بأسلوب مغرق متزمت . وهى تغضى عن تلك الحقيقة الهامة ، وهى أن النصارى المستعربين وهم من رعايا الحكومة الإسلامية ، ويتمتعون تقريباً بكامل حقوق إخوانهم المسلمين ، يدينون لهذه الحكومة بالطاعة ، واحترام القانون والنظام . ولئن كانت ثمة بعض قيود لحقوقهم ، فإن سن هذه القيود لا يرجع إلى عدم التسامح ، ولكنه يرجع إلى روح العصر ذاته .

بيد أن العوامل الدينية لم تكن وحدها مبعث هذا التحامل ، الذى يضطرم به نصارى قرطبة نحو الحكومة الإسلامية ، بل كان للعوامل الاجتماعية أيضاً أثرها فى إذكائه . ذلك أن القسس والمتعصبين كان يحفظهم ويثيرهم ، ما يحيط بالحكم الإسلامى من مظاهر الإعزاز والسؤدد ، وما تبديه الهيئة الحاكمة من مظاهر الأبهة والفخامة ، وماينعم به المجتمع الإسلامى ، من حياة رغدة رفيعة . وكان يذكى هذا الحقد فى نفوسهم مايعانونه من خشونة عامة قرطبة وتعريضهم وتحاملهم . وهكذا بلغ تعصب النصارى أقصاه فى عهد عبد الرحمن ، وبدا منذراً بشر العواقب . وكان فى وسع أولئك المتعصبين فى المدن البعيدة عن قرطبة مثل طليطلة وغيرها ، أن يرفعوا علم الثورة ، وأن يقاتلوا حكامهم وجهاً لوجه ، ولكن الثورة فى قرطبة كانت أمراً عسيراً . فحاولوا عندئذ أن يبثوا بذور الفتنة الطائفية والفوضى الدينية والاجتماعية ، وأن يحاولوا الاستشهاد بطريق الاشتباك والتحدى . وعمد القسس والمتعصبون إلى تحقيق غايتهم بوسيلة بسيطة خطيرة معاً ، هى المجاهرة بسب النبى العربى ودينه ، وهى جريمة شنعاء تعرض مرتكبها لعقوبة الموت ، وأخذ بعض الغلاة من القسس والمتعصبين الهائمين ينزلقون عامدين إلى

---

(١) راجع هذا الفصل فى مؤلف سيمونيت الضخم : Historia de los Mozarabes de Espana. Vol. I. p. 258—272

هذا المنحدر الخطر ، ويوجهون السب المثير إلى النبي العربي فى الطرقات جهراً ، فإذا أخذوا أمام القضاة كرروا سبابهم بمنتهى الإصرار والجرأة . وحاول القضاة فى البداية استعمال الرفق واللين ، وإقناع أولئك العابثين بالعدول عن أقوالهم ، ولكنهم ألفوا أنفسهم أمام سلسلة مدبرة من الجرائم المماثلة ، فلم يترددوا عندئذ فى الحكم على القاذفين بالموت ، وهكذا أزهق بتلك الطريقة عدة من القسس والمتعصبين فى فترة وجيزة من صيف سنة ٨٥١ م (٢٣٧ هـ) ، وكان الأحبار يكرمون رفات القتلى ، ويسبغون عليهم صفة الشهداء ، ويزيدون بذلك فى اضطرام الفتنة . وكان فى مقدمة المنظمين لهذه الحركة قس من قرطبة يدعى «أولوخيو» ، كان يعمل على تحريض أولئك «الشهداء» المزعومين ، ودفعهم إلى براثن الموت .

ويصف لنا العلامة المتزن ألتاميرا ، تلك المؤامرة المنظمة فيما يأتى : « اتبع الأمراء المسلمون سياسة التسامح الدينى منذ الفتح . وكان أشراف العرب يحترمون النصارى ، ولكنهم لم يستطيعوا منع الدهماء فى أوقات الحماسة المغرقة ، من إهانة القسس حينما يسيرون فى الشوارع فرادى أو فى مواكبهم . وكانت هذه الحوادث وأمثالها تثير سخط النصارى ، وأدى ذلك بمضى الزمن إلى حقد الورعين ولاسيما القساوسة . وحاول النصارى عن طريق آخر ، أن يحدثوا فورات تحطم النير الإسلامى . فطلبوا الاستشهاد بالطعن فى محمد أمام الناس والسلطات ، وأعدموا لأن القانون يعاقب بالموت على ذلك . ولم يقتصر الاندفاع فى ذلك الطريق على المدنيين ، بل اندفع فيه كذلك قساوسة عقلاء مسالمون ، وكان من هؤلاء أولوخيو وألبارو ، ولم يجد هؤلاء طريقة أفضل للاحتجاج على الإسلام من الطعن فيه ، وتقديم حياتهم قرباناً للدين الكاثوليكى »(١). وأدرك عبد الرحمن دقة الموقف وخطورته ، ورأى أن يعالجه بالحزم والتفاهم معاً ، فاستدعى مجلساً من الأساقفة ، عقد فى قرطبة برآسة ريكافرد مطران إشبيلية ، ومثل الأمير فيه أحد كتابه النصارى ، وهو جومث بن أنطونيان بن خوليان عامل أهل الذمة(٢) ، وشرح للأساقفة

---

(١) R. Altamira : Hist. de Espana , Vol. I. p. 230

(٢) ويسميه ابن القوطية قومس بن انتنيان بن يليانة وقد اعتنق الإسلام فيما بعد (ص ٨٣) . وكذلك يذكره الخشنى فى كتاب قضاة قرطبة ويسميه أيضاً قومس بن انتنيان . راجع كتاب قضاة قرطبة (القاهرة) ص ١١١ .

ما يمكن أن يترتب على أعمال المتطرفين وسبهم للنبي من العواقب الخطيرة بالنسبة للنصارى. ولم يعترض المجلس على مبدأ الاستشهاد فى ذاته ، ولكنه أصدر قراره باستهجان مسلك أولئك المتطرفين ، وتحذير النصارى المخلصين من حذو مسلكهم ، ووجوب اعتقال كل مخالف(١). ولكن قرار الأساقفة لم يكف لتسكين فورة التعصب المزبد ، وتمادى المتطرفون أنصار أولوخيو فى غيهم ، وزج إلى السجن منهم كثيرون ، ومنهم أولوخيو نفسه ، وكان بين المعتقلين بضع فتيات مسلمات بمولدهن من آباء مسلمين وأمهات نصارى ، ولكن أضلهن الأمهات والقسس ، ودفعن إلى التنصر وسب النبي ، وكان منهن فتاة رائعة الحسن تدعى فلورا ، عرفها أولوخيو وهام بها حباً .

وقصة هذه الفتاة حسبما يرويها سيمونيت ، توضح لنا طريقة التحدى والاستثارة التى اتبعها المتطرفون لإحداث الشغب . فقد كانت فلورا ابنة مسلم من زوجه النصرانية ، وتوفى أبوها وهى ما تزال طفلة ، فربتها أمها على مبادئ المسيحية . وكانت بالرغم من جمالها تبدى تحفظاً ونسكاً ، وتزور الكنائس خفية لخوفها من أخيها الأكبر ، وهو مسلم شديد التعصب. ثم فرت من دار أهلها ، وتتبعها أخوها فى كل مكان ، فعادت إلى منزلها ، وأعلنت لأخيها تمسكها بدين النصرانية ، ولم ينجع فى ردها الضرب والوعيد . فأخذها أخوها إلى القاضى ، وأبلغه بأن أخته القاصر قد ضلت واعتنقت الدين المسيحى ، وأنها تسب النبي ودينه ، واعترفت فلورا بأنها نصرانية منذ طفولتها ، ومتمسكة بدينها . ومع أن هذا الاعتراف بالردة يستحق عقوبة الموت ، فإن القاضى اكتفى بتقرير ضربها ضرباً مبرحاً ، أملا فى أن تعود إلى صوابها . فاحتملت الفتاة العقوبة بجلد ، وحملت إلى دارها منهوكة القوى ، وصبرت أياماً حتى برئت من مرضها ، ثم فرت من الدار ذات ليلة ، وسارت هائمة على وجهها ، حتى لجأت إلى دار نصرانى فى بلدة « مرتش » القريبة ، والظاهر أن القس أولوخيو رآها هنالك ، وأعجب بجمالها وحشمتها وورعها ، وشعر نحوها بحب سماوى عميق .

ثم عادت فلورا بعد حين إلى قرطبة مواجهة كل خطر ، معتزمة الاستشهاد ، ولجأت إلى كنيسة سان إثيسكولو ، وكانت قد لجأت إليها أيضاً فتاة نصرانية

---

(١) Dozy : ibid , Vol. I. p. 340

أخرى تدعى ماريا ، وكانت إبنة رجل نصرانى من لبلة ، وأم مسلمة تنصرت . وربيت ماريا فى الدير تربية دينية خالصة ، كما ربى أخوها الأكبر فيه . ولما توفى أخوها وجدت عليه وجداً شديداً ، وسارت إلى قرطبة تبغى الاستشهاد ، ولجأت إلى نفس الكنيسة التى لجأت إليها فلورا . واعتزمت الفتاتان أمرهما وذهبتا إلى دار القضاء ، وقالت فلورا للقاضى إنها إبنة مسلم ، ولكنها اعتنقت النصرانية وأخلصت لها ، وأن المسيح هو الإله الحق ، وأن النبى محمد ، هو نبى زائف ... الخ[1]. وكذلك قالت ماريا إنها تؤكد من كل قلبها أن يسوع هو الرب الحقيقى ، وأن الإسلام دين الشيطان . فأمر القاضى بإيداعهما السجن . وكان فيه بطريق الصدفة أولوخيو مقضياً بحبسه أيضاً ، فعكف على وعظ الفتاتين ، وحثهما على الاستشهاد فى سبيل المسيح .

وحاول القاضى نصح الفتاتين ، ولكنهما أصرتا على موقفهما وعلى مطاعنهما. وأخيراً أصدر القاضى حكمه بإعدامهما ، وذلك فى ٢٤ نوفمبر سنة ٨٥١ ، وأخذتا إلى ساحة الإعدام ، وهنالك أبدت كلتاهما إشارة الصليب ، ثم أعدمتا بقطع الرأس ، وألقيت جثتاهما إلى النهر ، واستطاع النصارى العثور على جثة ماريا وحدها ، فأخذوها مع رأسى الفتاتين . ونظمت فلورا فيما بعد فى سلك القديسين[2].

هكذا يروى سيمونيت قصة فلورا وزميلتها ، ومهما كان فى أسلوبه من رواء القصة المشجية ، فإن فى وقائعها ما يلقى ضوءاً على خيوط المؤامرة التى دبرها نصارى قرطبة ، وفى مقدمتهم القسس ، لإثارة الفتنة الطائفية والإخلال بالنظام والأمن ، وهى محاولة لا يمكن لأية حكومة منظمة أن تغضى عنها .

واستمرت هذه الفتنة المضطرمة مدى حين ، وتذرعت حكومة قرطبة فى إخمادها بالحزم والشدة ، وزهق من المتعصبين عدة أخر ، ومن بينهم أولوخيو الذى نظمه النصارى فيما بعد فى ثبت « القديسين » .

وهكذا شغل عبد الرحمن فى أواخر عهده بتلك الفتنة الدينية الخطيرة ، ولكن المتعصبين لم يحققوا منها ما أملوا ، وكانت بالعكس مثار السخط والإنكار من جانب النصارى المعتدلين ، الذين يقدرون تسامح الحكومة الإسلامية ورفقها ورعايتها .

* * *

(١) لم نر مجالا لإيراد بقية المطاعن التى أوردها سيمونيت على لسان فلورا وهى مطاعن مقذعة .

(٢) **Simonet : Hist. de los Mozarabes, Vol. I. p. 413—422**

وتوفى عبد الرحمن بن الحكم فى الثالث من ربيع الثانى سنة ٢٣٨ ﻫ (٢٣ سبتمبر ٨٥٢ م) فى الثانية والستين من عمره ، بعد أن حكم إحدى وثلاثين عاماً وبضعة أشهر . وكان أسمر طويلا ، وسيم المحيا ، أشم ، أقنى ، أعين ، أسود العينين ، بهى الطلعة ، بهيج الزى ، كبير اللحية . نقش خاتمة : « عبد الرحمن بقضاء الله راض »[١] ، ويكنى أبا المطرّف ، ويعرف بعبد الرحمن الأوسط أو الثانى ، والأول هو جده عبد الرحمن الداخل ، والثالث هو عبد الرحمن الناصر . وكان مثل أبيه الحكم ، أميراً وافر البأس والعزم ، رفيع الخلال ، يسمو بمكانته ويحتجب عن العامة ، ويعشق مظاهر البذخ والفخامة . وفى عهده وصل البلاط الأموى إلى درجة لم تسبق من البهاء والروعة ، وبدت الأرستقراطية العربية فى أبدع مظاهرها ، وسطعت الفروسية الأندلسية ، وتجلت خلالها الباهرة التى غدت فيما بعد مثلا يحتذى فى مجتمعات العصور الوسطى ، وعنها اقتبست فروسة النصرانية فيما تلا من العصور . ورتبت رسوم المملكة أبدع ترتيب ، ورفع من شأن الوظائف العامة ، وأحيطت بسياج من الهيبة والمسئولية ، وجعل « أحكام السوق » منصباً مستقلا عن ولاية المدينة ، واتبعت رسوم الخلفاء فى الزينة والشكل وترتيب الخدمة[٢] ، ووضعت خطة الوزارة المنظمة .

وتنوه الرواية الإسلامية بمقدرة عبد الرحمن ، وحسن اختياره لرجالات حكومته . فيقول لنا الرازى : « وانتقى الرجال للأعمال ، واستوزر الأكفاء ، من أهل الاكتفاء ، وقدوة الأبطال ذوى الغناء ، فظهر فى أيامه جلة الوزراء وكبار الفقهاء » . وكان من وزرائه عدة من أعظم وألمع رجالات العصر ، مثل الحاجب عبد الكريم ، والقائد عيسى بن شُهيد ، ويوسف بن بخت ، وهاشم بن عبد العزيز ، وعبد الرحمن بن رستم ، وحسن بن عبد الغافر بن أبى عبده ، ومحمد بن السليم ، ومحمد بن عبد السلام بن بسيل ، وعبد الواحد بن يزيد الإسكندرانى ، وغيرهم . وكان الوزراء يختلفون إلى القصر بطريقة منظمة للبحث والمداولة وإبرام الشئون فى جناح خاص ، سمى « بيت الوزارء » ، وانتهت

(١) ابن الأثير ج ٧ ص ٢٢ ؛ وابن حيان عن الرازى ، المخطوطة الأولى ص ١١١ ؛ والثانية لوحة ١٩٤ ب

(٢) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٦١ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٩٣ .

أرزاق الوزراء يومئذ إلى ثلاثمائة وخمسين ديناراً فى الشهر[1] .

وتفيض الرواية فى مناقب هذه الجمهرة من الوزراء والقادة ، الذين اجتمعوا فى بلاط عبد الرحمن بن الحكم ، وتصفهم بأنهم «عصابة من سراة الوزراء ، أولى الحلوم والنهى ، لم يجتمع مثلها عند أحد من الخلفاء قبلهم ولا بعدهم» . ويتقدم هذا الثبت الحافل رجلان ، كان لهما فى تنظيم حكومة عبد الرحمن وسياسته أعظم الأثر ، أولهما الحاجب عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث حاجب أبيه الحكم من قبل ، وهو الذى يصفه الرازى بأنه « أكمل من حمل هذا الاسم ، وأجمعهم لكل جملة حسنة». وكان عبد الكريم ، فضلا عن براعته الإدارية ، مثل جده مغيث فاتح قرطبة ، من أعظم قادة هذا العصر ، وقد قاد حسبما تقدم فى مواضعه ، عدة من الحملات الغازية المظفرة . ولما توفى فى سنة ٢٠٩ هـ (٨٢٤ م) خلفه فى الحجابة سفيان بن عبد ربه وهو من البربر ، ولم تكن له نباهة سابقة ، ثم عيسى بن شهيد ، وهو ثانى الرجلين . وكان عيسى من أعيان موالى بنى أمية ، وكان أيضاً من وزراء الحكم ، أوصى به ولده عبد الرحمن ، فلما ولى الأمر قدمه على خاصته ، ثم ولاه خطة الخيل ، ثم خلع عليه رتبة الوزارة ، وعهد إليه بالنظر فى المظالم ، وتنفيذ الأحكام على طبقات أهل المملكة . ثم ولاه الحجابة بعد سفيان . واشتهر عيسى بالحلم والوقار وحصافة الرأى ، والمعرفة والجزالة ، وقاد كثيراً من الصوائف المظفرة . بيد أنه استهدف لخصومة الفتى نصر الخصى المسيطر على شئون القصر ، والأثير لدى الأمير بمظاهرته لحظيته طروب ، فلبث يدس له ويعمل على إقصائه عن الحجابة ، حتى تم له ذلك ، حينما مرض عبد الرحمن وطال احتجابه . وعين مكانه للحجابة عبد الرحمن بن رستم . فلما أبل الأمير من مرضه أنكر ما وقع ، وأنحى باللائمة على نصر ، وأعاد عيسى بن شهيد إلى الحجابة ، فلم يزل على حجابته حتى توفى عبد الرحمن . قال ابن القوطية : «لم يختلف أحد من شيوخ الأندلس فى أنه ما خدم ملوك بنى أمية فيها أحد أكرم من عيسى بن شهيد غاية ، ولا أكرم اصطناعاً ، ولا أدعى لذمته . ولقد كان الحاجب قبله عبد الكريم ابن عبد الواحد بن مغيث بهذه الصفة ، على زيادة خصاله وأدواته على عيسى ،

---

(١) ابن القوطية ص ٦١ ، و ٦٢ ، وكذلك مخطوط ابن حيان ص ١٤٤ . ومخطوط القرويين لوحة ١٩٦ أ .

إلا فى باب كرم الصنيعة واستتمامها ، فلم يك تفضله درجة »[١] .

وتولى الكتابة للأمير عبد الرحمن عدة من الكتاب المبرزين ، فى مقدمتهم الحاجب عبد الكريم ، وقد كان أيضاً كاتباً بليغاً وشاعراً جزلا ، وعبد الله بن محمد ابن أمية بن أبى حوثرة ، ومحمد بن أبى سليمان الزجالى وهو من برابرة نفزة ، وكان كاتباً بارعاً ، واشتهر بقوته فى الحفظ حتى أنه سمى « بالأصمعى » ، واشتهر أبناؤه من بعده فى ميدان الكتابة .

وكان ممن كتبوا للأمير عبدالرحمن أيضاً الأسقف جومث (قومس) بن أنطونيان عامل أهل الذمة ، وكان أديباً بارعاً ، وكاتباً مقتدراً ، وكان عبد الرحمن يعهد إليه بالمهام الخطيرة ، وخدم من بعده ولده الأمير محمد[٢] .

واجتمعت فى عهد الأمير عبد الرحمن أيضاً جمهرة من جلة الفقهاء والقضاة ، رحل معظمهم إلى المشرق فى طلب العلم وانتقاء الرواية ، ومن هؤلاء محمد بن يوسف بن مطروح ، ومحمد بن حارث ، وعبد الأعلى بن وهب ، وبقى بن مخلد ، ومحمد بن وضاح ، ويحيى بن إبراهيم بن مدين ، وعيسى بن دينار ، ويحيى بن يحيى . وقد اشتهر بعض هؤلاء من قبل فى عهد أبيه الحكم . وكان يتقدم هذه الجمهرة من الفقهاء فى المكانة والنفوذ ، عبد الأعلى بن وهب ، ويحيى ابن يحيى ، وعبد الملك بن حبيب . وكان يحيى بن يحيى عميد الفقهاء وشيخ قرطبة الأول ، وأصله من برابرة مصمودة ، ودرس فى المشرق على مالك ، والليث بن سعد وابن وهب وغيرهم ، وتولى الفتيا بعد عيسى بن دينار ، ولبث حتى وفاته فى سنة ٢٣٤ هـ يتبوأ أسمى مكانة . وكان ممن اتهموا بالتحريض على ثورة الربض وفر عقب إخماد الثورة إلى طليطلة ، ثم استأمن الحكم فأمنه وعاد إلى قرطبة .

وخلفه فى علمه ومكانته عبد الملك بن حبيب ، وغدا أثير الأمير ، لا يقدم عليه أحداً ، ولا يعدل بمشورته أحد . وكان عبد الملك فوق براعته فى الفقه والحديث ، متقدماً فى علوم اللغة ، والعلوم القديمة ، بارعاً فى الأدب ، وكتب كتباً فى إعراب القرآن وشرح الحديث وفى الأنساب وغيرها[٣] .

---

(١) تاريخ ابن حيان (مخطوط القرويين) لوحة ١٩٦ أ و ب و ١٩٧ أ و ١٩٨ أ .

(٢) راجع قضاة قرطبة للخشنى ص ١١١ .

(٣) تاريخ ابن حيان (مخطوط القرويين) لوحة ٢٠١ ب و ٢٠٢ أ .

ويخصص ابن حيان لذكر قضاة عبد الرحمن ، وأخبارهم ، ونوادرهم والتعريف بهم ، نبذاً طويلة رأينا أن نكتفى بالإشارة إليها[١].

وحذا عبد الرحمن حذو أبيه أيضاً ، فى اصطفاء الموالى والصقالبة ، وابتاع أنصبة أخوته من مماليك أبيه « العجم » ، وكانوا خمسة آلاف مملوك ، ثلاثة آلاف فارس يرابطون إزاء باب القصر ، فوق الرصيف ، وألفا رجل على أبواب القصر وكانوا يسمون « الخرس » لعجمتهم[٢] . وسما نفوذ الفتيان يومئذ فى البلاط ، وكان زعيمهم الفتى نصر المتصرف فى شئون القصر الخاص ، وكان يتمتع بأعظم نفوذ فى القصر والدولة ، بمؤازرة طروب جارية عبد الرحمن .

وكان نصر هذا ويكنى أبو الفتوح ، من الفتيان المختارين الذين اشتهروا بالجمال والظرف ، وأمر الحكم بخصيهم ، وأصله من أبناء الأحرار الذين حشدوا للخدمة داخل القصر ، وكان أبوه من أسالمة أهل الذمة (المولدين) من أهل قرمونة[٣] . ولما ولى عبد الرحمن ، قدّمه على سائر خاصته ، وغدا مدبر أمر داره ، ومشاركاً لأكابر وزرائه فى تصريف الشئون . وتضاعف نفوذه ومكانته بمحالفته لجارية عبد الرحمن الأثيرة طروب ، صاحبة النفوذ القوى . وكان من أشهر أعمال نصر قيادته لجيوش الأندلس التى حشدت لمقاتلة النورمانيين فى أراضى إشبيلية ، وانتصاره عليهم . واستمر نجم نصر فى صعود ، ونفوذه فى تمكن ، حتى غدا أعظم رجال الدولة ، وأمضاهم أمراً ؛ وكان مرهوب الجانب ، يخشاه الأكابر والخاصة . توفى فجأة فى أواخر سنة ٢٣٣ هـ (٨٤٨ م) ، « أرقى ما كان فى غلوائه ، وأطمع ما هو بالاحتواء على أمر سلطانه ، أرهب ما كان الناس له ، وأخوفهم لعدوانه ، إذ نال من أثرة مولاه الأمير عبد الرحمن واصطفائه ، فوق ما ناله خادم خاص ، مع أمير رشيد » . فتنفس الناس الصعداء ، وسروا لوفاته ، والتخلص من طغيانه[٤].

---

(١) مخطوط القرويين اللوحات ٢٠٢ أ حتى ٢١١ أ .

(٢) مخطوط ابن حيان ص ١٤٥ .

(٣) ابن حزم فى رسالة نقط العروس ص ٧٣ . ويقول ابن حزم إن نصراً هذا هو الذى تنسب إليه « منية نصر » وهى ضاحية جميلة كانت تقع على النهر ، على مسافة قصيرة من شرقى قرطبة .

(٤) تاريخ ابن حيان (مخطوط القرويين) لوحة ١٩١ ب .

واستكثر عبد الرحمن أيضاً من اقتناء الجوارى الحسان ، وكان كلفاً شديد الشغف بهن ، وكان يعنى باختيارهن من أطيب العناصر والأصول ، واجتمعت لديه منهن نخبة بارعة فى الحسن والخلال ، مثل طروب أم ولده عبد الله ، ومؤمرة أم ولده المنذر ، وشفاء أم ولده المطرّف ، وفخر ومتعة وغيرهن ، وأنجب عبد الرحمن من الولد عدداً ضخماً بلغ وفقاً لابن حزم مائة ، خمسين من الذكور ، ومثلهم من الإناث ، وذكر الرازى أن عدد أولاده من الذكور أربعون ، وسماهم واحداً واحداً ، وأن عدد بناته ثلاثة وأربعون ، ذكر أسماءهن جميعاً[1] . وبلغ الجوارى كالفتيان من النفوذ مبلغاً عظيماً . واشتهرت من بينهن طروب حظية عبد الرحمن الأثيرة لديه ، وقد اشتد نفوذها فى أواخر أيامه ، وظاهرت نصراً الفتى ، فكانت لهما الكلمة النافذة فى معظم الشئون ، وكان عبد الرحمن يشغف بها أعظم شغف ، وهو القائل فيها :

إذا ما بدت لى شمس النهـــا ... ر طالعـــة ذكرتنى طـــروبا

وعنى عبد الرحمن بالمنشآت العامة أعظم عناية ، فزاد فى مسجد قرطبة الجامع بهوين جديدين من جانب القبلة ، وقام على عمارته الفتى نصر . وما زال هذا الجامع الشهير قائماً إلى اليوم بسائر عقوده الإسلامية ، وأروقته ومحاريبه . ولكنه حول منذ القرن السادس عشر إلى كنيسة قرطبة العظمى (كتدرائية) ، وبالرغم من أن الهياكل قد أقيمت فى سائر عقوده الجانبية ، وأقيم فى وسطه مصلى عظيم على شكل صليب ، فإنه ما زال يحمل بالإسبانية اسمه الإسلامى القديم « المسجد الجامع » La Mezqnita Aljama ، وقد أزيلت قبابه ومعظم زخارفه الإسلامية ، لتحل مكانها الزخارف النصرانية . ولكن محاريبه الفخمة ، مازالت تحتفظ بنقوشها الإسلامية ، وآياتها القرآنية .

ويقع جامع قرطبة فى طرف المدينة الجنوبى وسط شبكة من الدروب الأندلسية القديمة ، على مقربة من القنطرة الرومانية العربية القائمة على نهر الوادى الكبير . ويبلغ طوله ١٨٥ متراً وعرضه ١٣٥ متراً . وله عدة أبواب كبيرة فخمة ، مازالت تحتفظ بكثير من نقوشها الإسلامية . ويعرف بابه الرئيسى المقابل لصحنه

---

(١) راجع جمهرة أنساب العرب لابن حزم (القاهرة) ، ص ٩٠ ، وابن حيان (مخطوط القرويين) لوحة ١٩٤ ب و ١٩٥ أ .

« بباب النخيل » Puerta de las Palmas ، ويقع صحنه فى ناحيته الشمالية ويعرف بفناء النارنج Patio de los Naranjos ، وهو صحن مستطيل شاسع يزدان بعدد من أشجار البرتقال (أو النارنج) ، وهو الآن صحن الكنيسة . وقد هدمت منارة الجامع ، وهى التى أقامها عبد الرحمن الناصر بجوار الصحن ، وأقيم مكانها برج الأجراس الحالى[١] .

وأنشأ عبد الرحمن أيضاً مسجد إشبيلية الجامع ، كما ابتنى سورها الكبير عقب غزو النورمانيين لها ، ووضع نظاماً جديداً للسكة وجعلها أندلسية مستقلة ، بقيم وأوزان جديدة . وكان أهل الأندلس يتعاملون من قبل بما يحمل إليهم من نقد المشرق ، أو بنقود تسك على نظامه ، فى دار السكة التى أنشأها عبد الرحمن الداخل . وأنشأ أجنحة ومشارف جديدة للقصر ، وجلب إليه الماء العذب من قنن الجبال ، وأنشأ على النهر الأعظم مما يلى سور القصر والمدينة رصيفاً عظيماً[٢] . كما أنشأ بقرطبة عدة من الحدائق الغناء . وحذت جواريه حذوه ، فأنشأن فى قرطبة عدة مساجد سميت بأسمائهن .

ويشير سيمونيت إلى عظمة قرطبة فى عصر عبد الرحمن ويقول « إن عبد الرحمن كان يعشق البذخ الطائل ، وفى عهده حفلت قرطبة بطائفة من المساجد والقصور والقناطر والمنشآت المختلفة . وقد وصف قرطبة وعظمتها فى عهده نصرانى معاصر شهير وهو سان أولوخيو ، إذ يقول إن عبد الرحمن أسبغ على عاصمة مملكته لوناً خارقاً من العظمة ، ورفع من ذكرها ، وأفاض عليها حلل المجد ، وأغدق عليها الثروات ، وملأها بجميع مظاهر المتعة الدنيوية إلى حدود لا تصدق »[٣] .

وكانت أيام عبد الرحمن أيام سكينة وأمن ورخاء ، وفيها ازدهرت الزراعة والصناعة والتجارة ، وورد على الأندلس كثير من الأمتعة والسلع الفاخرة ، وزخرت الأسواق بالبضائع . وزاد الدخل زيادة عظيمة ، وبلغت الجباية وحدها

---

(١) راجع وصفاً مسهباً لجامع قرطبة وتاريخه وخواصه الأثرية فى كتابى : « الآثار الأندلسية الباقية فى اسبانيا والبرتغال » (الطبعة الثانية) ص ٢٠ — ٣٤ .

(٢) كان القصر الأموى القديم يقع على ضفة النهر على مقربة من الجامع ، ويحتل موقعه اليوم القصر الأسقفى والسجن المحلى ، والحدائق المجاورة التى ما زالت إلى اليوم ، تسمى حدائق القصر Huertas del Alcazar ، والمرجح أنها تقوم مكان حدائق القصر القديمة .

(٣) Simonet : ibid , Vol. I: p. 366

زهاء ألف ألف دينار فى السنة ، واستطاع الأمير أن ينفق بسخاء على تسيير الحملات الغازية ، وإقامة المنشآت المختلفة[١] .

وكان عبد الرحمن بن الحكم أديباً حسن التثقيف ، وكاتباً بليغاً مشرق البيان ، عالماً بالشريعة والحكمة (الفلسفة) ، مجيداً للنظم ، نصيراً للعلوم والآداب ، يحتشد حوله جمهرة من أكابر العلماء والأدباء والشعراء ، مثل العلامة الرياضى والفلكى عباس بن فرناس ، ويحيى الغزال ، وشاعره الخاص عبد الله بن الشمر بن نمير ، وكان صديقه مذ كان ولياً للعهد ، وكان بارعاً فى الأدب والشعر والمنطق والتنجيم ، وكان يكشف لعبد الرحمن نجمه وطالعه[٢] ، وعباس بن ناصح الجزيرى شاعر أبيه الحكم ، وعبيد الله بن قرلمان بن بدر مولى الداخل ، وكان من جلسائه وخاصته وكان أديباً بارعاً ، وشاعراً مجيداً . وغيرهم . ومن نظمه قوله :

ولقد تعارض أوجه لأوامر ۞ فيقودها التوفيق نحو صوابها
والشيخ أن يحو النهى بتجارب ۞ فشباب رأى القوم عند شبابها

وقوله وقد خرج غازياً إلى جلّيقية :

فكم قد تخطيت من سبسب ۞ ولاقيت بعد دروب دروبا
ألاقى بوجهى سموم الهجـ ۞ ـير إذ كاد منه الحصى أن يذوبا
تدارك بى الله دين الهدى ۞ فأحييته وأمتُّ الصليبا
وسرت إلى الشرك فى جحفل ۞ ملأت الحزون بها والسهوبا

ومن قوله فى الغزل :

قتلتنى بهواكا ۞ وما أحب سواكا
من لى بسحر جفون ۞ تديره عيناكا
وحمرة فى بياض ۞ تكسى به وجنتاكا
أعطف على قليلا ۞ واحينى برضاكا
فقد قنعت وحسبى ۞ أن أرى من رآكا

---

(١) راجع ابن القوطية ص٦٧ ، وابن الأبار ص ٦١ ، والبيان المغرب ج ٢ ص٩٣ و ٩٤ ، وأخبار مجموعة ص ١٣٦ ، ونفح الطيب ج ١ ص ١٦٢ و ١٦٣ ؛ وابن الأثير ج ٧ ص ٢٢ ؛ وفى مخطوط ابن حيان عما تقدم نبذ وتفاصيل حسنة (ص ١٣٨ و ١٤٢ و ١٤٤) .

(٢) مخطوط ابن حيان ص ١٥٦ و ١٥٧ .

واشتهر عبد الرحمن بحنوه الجم على قرابته وذوى رحمه بدرجة لم يجاره فيها أحد من أهل بيته ، فكان يوليهم وافر عطفه ، ويجرى عليهم الصلات السخية . وفى أيامه وفد من المشرق على الأندلس عدد من قرابته المروانية (بنى أمية) ، فاستقبلهم جميعاً أجمل استقبال ، وأنزلهم أكرم منزل ، وأجرى عليهم الأرزاق والإقطاعات الواسعة .

وكان عبد الرحمن يعشق الفلك والتنجيم ، ويشغف بدراسته ، وكان العلامة الرياضى ابن فرناس ، وعبيد الله بن الشمر ، وعبد الواحد بن إسحاق الضبى من أساتذته فى ذلك الفن ، وكان يقربهم ويجرى عليهم الأرزاق الواسعة ، وله معهم قصص ونوادر كثيرة . وكان أيضاً يعشق الغناء والموسيقى ، ويجمع حوله عدداً من أكابر الفنانين يجرى عليهم الأرزاق الواسعة . ووفد عليه من المشرق أبو الحسن على بن نافع الملقب بزرياب نابغة الغناء والموسيقى ، وكان زرياب من تلاميذ الفنان الشهير إسحاق الموصلى مغنى الرشيد ، فلما ظهر نبوغه وشعر أبو إسحاق بخطورة منافسته ، تحيل فى صرفه وإبعاده ، فغادر بغداد إلى المغرب ، وكتب إلى الحكم أمير الأندلس يستأذنه فى الوفود عليه . فأذن له واستدعاه ، ولكن زرياب ما كاد يصل إلى المغرب حتى علم بوفاة الحكم ، وكاد ينثنى عن عزمه فى العبور إلى الأندلس ، لولا أن جاءه كتاب عبد الرحمن بدعوته والترحيب به ، فسار إلى قرطبة واستقبله عبد الرحمن بمنتهى الإكرام والحفاوة ، وأجرى عليه الأرزاق الواسعة ، وجعله من خاصة بطانته . وبهر زرياب أهل الأندلس ببراعتــه فى الغناء والموسيقى ، وطار صيته فى كل مكان ، وأضحى قطب الفن الذى لا يجارى ، وأخذ عنه أهل الأندلس فنونه وإبداعه ، وتشبهوا به فى مظاهر زيه وإناقته وطرائق معيشته . وتوفى فى ربيع الأول سنة ٢٣٨ هـ (أغسطس ٨٥٢ م) قبيل وفاة عبد الرحمن بأسابيع قلائل . وكان لزرياب وفنه أعظم الأثر فى تكوين الفن الأندلسى فى ظل الدولة الأموية ، ثم فى ظل دول الطوائف(١) .

وشغف عبد الرحمن أيضاً بجمع الكتب ، وأوفد شاعره عباس بن ناصح إلى المشرق للبحث عن الكتب القيمة واستنساخها ، فجمع له منها طائفة كبيرة ،

---

(١) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ١٠٩ وما بعدها ، وابن خلدون فى المقدمة ص ٢٥٧ .

وكان أول من عنى بجمعها من أمراء الأندلس، وكانت جهوده فى هذا السبيل نواة لإنشاء مكتبة قرطبة العظيمة .

* * *

وفى عهد عبد الرحمن سما شأن حكومة قرطبة الإسلامية ، وأخذت تتبوأ مكانتها من الهيبة والنفوذ ، بين مختلف القصور والحكومات النصرانية ، وتغدو مركز التوجيه للدبلوماسية الإسلامية فى الغرب . والظاهر أن الدولة البيزنطية ، خصيمة الدولة العباسية فى المشرق ، كانت تعتقد أنها تستطيع أن تصل بتفاهمها مع حكومة قرطبة الإسلامية ، إلى بعض النتائج العملية فى مقاومة خصيمتهما المشتركة . ففى سنة ٨٤٠ م (٢٢٥ ﻫ) وفد على قرطبة سفير من قبل قيصر قسطنطينية الإمبراطور تيوفيلوس (توفلس) ، يدعى قرطيوس ، ومعه كتاب وهدية فخمة ، فاستقبله عبد الرحمن بحفاوة ، وكان القيصر يتوجه فى كتابه إلى أمير الأندلس ، باسم الصداقة القديمة التى كانت قائمة بين الأوائل من خلفاء بنى أمية وقياصرة بيزنطية ، ويشكو مر الشكوى من فعال الخليفة المأمون وأخيه المعتصم وعيثهما فى أراضيه ، ويشير إليهما فى كتابه بابن مراجل وابن ماردة[1] تحقيراً وازدراء ، كما يشكو إليه من استيلاء أبى حفص البلوطى وعصبته الأندلسية على جزيرة إقريطش (كريت) وهى من أملاكه ، ويطلب إليه عقد أواصر المودة والصداقة بينهما ، ويرغبه فى ملك أجداده بالمشرق ، ويستنهض همته لاسترداده ، ويتنبأ له بقرب انهيار الدولة العباسية ، وزوال سلطانها ، ويعده بنصرته فى ذلك المشروع . وقد رد عبد الرحمن على سفارة تيوفيلوس بمثلها ، وأوفد كاتبه وصديقه الشاعر يحيى الغزال إلى قسطنطينية ومعه يحيى بن حبيب المعروف بالمنيقلة بكتاب وهدية إلى الإمبراطور . وقد سبق أن أشرنا إلى الغزال وإلى شخصيته الممتازة وإلى بارع خلاله وظرفه ، وكان الغزال قد جاوز الستين يومئذ ولكنه كان مايزال يحتفظ بكثير من إناقته وروائه . وسار الغزال وصاحبه يحيى ومعهما السفير البيزنطى إلى المشرق عن طريق تدمير (مرسية) ، فوصلوا إلى قسطنطينية بعد رحلة بحرية شاقة، عانوا فيها الأهوال من اضطراب البحر وروعة الموج. واستقبل الإمبراطور السفير الأندلسى بحفاوة ، وقدم الغزال إليه كتاب

(١) مراجل هى أم المأمون ، وماردة هى أم المعتصم ، وكلتاهما جارية وأم ولد .

عبد الرحمن وهديته . ويرد عبد الرحمن فى كتابه على ما جاء فى كتاب الإمبراطور تفصيلا ، ويشير مثله إلى المأمون والمعتصم بابن مراجل وابن ماردة ، وإليك ما يرد به عبد الرحمن على ما يدعوه إليه الإمبراطور من وجوب العمل لاسترداد ملك أجداده بالمشرق ، وهى أهم فقرات الخطاب :

« وأما ما ذكرت من أمر الخبيث ابن ماردة ، وحضضت عليه من الخروج إلى ما قبله ، وذكرته من تقارب انقطاع دولته ودولة أهله ، وزوال سلطانهم ، وما حضر من وقت رجوع دولتنا ، وأزف من حين ارتجاع سلطاننا ، فإننا نرجو فى ذلك عادة الله عندنا ، ونستنجز موعوده إيانا ، ونمترى حسن بلائه لدينا ، بما جمع لنا من طاعة من قبلنا ، من أهل شأمنا وأندلسنا وأجنادنا وكورنا وثغورنا ، وما لم نزل نسمع ونعترف أن النقمة تنزل بهم ، والدائرة تحل عليهم من أهل المغرب بنا وعلى أيدينا ، فيقطع الله دابرهم ، ويستأصل شأفتهم إن شاء الله تعالى »(١).

وأدى الغزال سفارته خير أداء ، وعمل على إحكام الصلة والمودة بين الإمبراطور وبين مليكه ، وسحر البلاط البيزنطى بكياسته وظرفه ، وبديع صفاته ، وقدمه الإمبراطور إلى زوجه الإمبراطورة تيودورا وإلى ولده الأمير ميخائيل الذى تولى العرش فيما بعد ، وكان يومئذ فتى يافعاً ، فأنست به الإمبراطورة وسحرته برائع جمالها ، وسحره الأمير الفتى بظرفه وبارع خلاله . وقال فيه قصيدته التى مطلعها :

وأغيد لين الأطراف رخص ... كحيل الطرف ذو عنق طويل
ترى ماء الشباب بوجنتيه ... يلوح كرونق السيف الصقيل
من أبنـــاء الغطارف قيصرى ... العمومة حين ينسب والخؤول

وعاد الغزال إلى قرطبة بعد رحلة دامت عدة أشهر ، وقد بهرته مظاهر الحضارة البيزنطية وروعة البلاط البيزنطى .

---

(١) ورد هذا الخطاب بنصه كاملا كما وردت تفاصيل هذه السفارة مفصلة فى مخطوط ابن حيان ص ١٦١ و١٦٢ و ١٦٣ ؛ ونشر الأستاذ ليڤى بروڤنسال قصة هذه السفارة بالفرنسية ، ومعها نص الخطاب بالعربية فى فصل خاص ، فى المجلد الثانى عشر من مجموعة **Byzantion** التى تصدر فى بروكسل بعنوان : **Echange d'Ambassades entre Cordoue et Byzance au IXe.Siècle** كما نشرها أيضاً فى رسالة خاصة . وراجع أيضاً نفح الطيب ج ١ ص ١٦٢ ، حيث يشير إلى هذه السفارة إشارة موجزة .

هذا وقد أوفد الغزال بعد ذلك بقليل فى سفارة أخرى أغرب وأعجب ؛ وذلك أنه على أثر غزو النورمانيين (المجوس) لولايات الأندلس الجنوبية الغربية واقتحامهم إشبيلية ، وردهم عنها ، ثم هزيمتهم ومطاردتهم ، بعث ملكهم رسله إلى عبد الرحمن بن الحكم فى طلب المهادنة والصلح ، فأجابه عبد الرحمن إلى طلبه ، وبعث الغزال مع الرسل إلى ملكهم ليرد السفارة ، ويعلنه بقبول الصلح .

وتقدم إلينا الرواية الإسلامية عن هذه السفارة تفاصيل شائقة . وهى رواية أديب أندلسى عاش فى القرن الثالث عشر الميلادى ، هو أبو الخطاب عمر ابن الحسن بن دحية البلنسى ، أوردها فى كتابه «المطرب من أشعار أهل المغرب» فى حديثه عن الغزال . وهو يذكر لنا أن عبد الرحمن أوفد مع الغزال ، يحيى بن حبيب لمرافقته فى تلك السفارة ، وأنهما خرجا معاً إلى البحر المحيط عن طريق شلب[1] فى مركب خاص أعد لهما ، وسارت مع مركب الرسل النورمانيين . ويصف لنا ما لقيه السفيران المسلمان من أهوال البحر وروعته ، وكيف أنهما جازا تلك الشدائد سالمين ووصلا إلى بلاد المجوس . ثم يصف لنا بلاد المجوس بأنها « جزيرة عظيمة فى البحر المحيط » ، وعلى مقربة منها « جزائر كثيرة منها صغار وكبار ، أهلها كلهم من المجوس ، وما يليهم من البر أيضاً لهم مسيرة أيام ، وهم مجوس ، وهم اليوم على دين النصرانية » .

ويبدو من وصف طريق الرحلة ، وأوصاف تلك الجزر ، أن القطر الذى قصده الغزال ورفيقه ، هو الدانماركة ، ويؤيد ذلك أن الدانماركة كانت فى ذلك الوقت مستقر ملك النورمان (المجوس) ، وكان ملكهم عندئذ يشمل الدانماركة وما حولها من الجزائر ، وقسما من إسكندناوة وألمانيا الشمالية . وكان يجلس على عرش النورمان فى ذلك الوقت (نحو سنة ٨٤٤ أو ٨٤٥ م) ملك يسمى « هوريك » . وكان النورمان يومئذ أحداثاً فى النصرانية ، حسبما تقول الرواية الإسلامية . ولقى السفير المسلم من ملك النورمان كل ترحاب وعطف ، وأفرد لإقامته وزملائه منزلا حسناً . وقدم إليه الغزال كتاب الأمير عبد الرحمن وهديته من الثياب والآنية ، فوقعت لديه أحسن موقع . ولقى الغزال فى البلاط النورمانى كله ، كثيراً من

---

(١) شلب Silves هى بلدة أندلسية قديمة تقع فى جنوب غربى البرتغال على مقربة من المحيط الأطلنطى .

الإعجاب والعطف ، واستقبلته « نود » ملكة النورمان ، فراعه حسنها ، وشملته بعطفها ، ورآها بعـــد ذلك مراراً ، ونظم فى حسنها شعراً رقيقاً ، يورده لنا ابن دحية ، وفيه يخاطبها بقوله :

يا نود يا رود الشـــباب التى   تُطلع من أزرارها الـكوكبا

وعاد الغزال إلى الأندلس بعد رحلة دامت عشرين شهراً ، وكان عوده عن طريق شنت ياقب . ويقول لنا ابن دحية إنه كان يحمل من ملك النورمان كتاباً إلى صاحبها ، وهو ملك جليقية وليون . والظاهر أنه كان كتاب توصية وجواز ، لكى يستطيع السفير المسلم وزملاؤه اختراق المملكة النصرانية الشمالية ، فى طريقهم إلى الأندلس . وقد اخترق الغزال بالفعل مملكة ليون ، وسار إلى طليطلة ، ومنها إلى قرطبة . والمرجح أن وصوله إلى قرطبة ، كان سنة ٢٣٢ هـ (أواخر سنة ٨٤٦ م) .

وعاش الغزال بعد ذلك زهاء عشرين عاماً أخرى ، وتوفى فى سنة ٢٥٠ هـ . وقد بلغ الرابعة والتسعين من عمره ، إذ كان مولده فى سنة ١٥٦ هـ[1] ، وأدرك خمسة من أمراء بنى أمية بالأندلس أولهم عبد الرحمن الداخل ، وآخرهم محمد ابن عبد الرحمن . وكان مدى نصف قرن يتبوأ الزعامة فى الشعر والأدب والحكمة ، ويتبوأ فى بلاط قرطبة أسمى مقام من النفوذ والثقة والتقدير[2] .

---

(١) راجع جذوة المقتبس للحميدى (مصر) رقم ٨٨٧

(٢) تراجع رواية ابن دحية كاملة فى كتابه « المطرب من أشعار أهل المغرب » المنشور بعناية وزارة المعارف سنة ١٩٥٤ (ص ١٣٨ – ١٤٩) . ونقلها دوزى فى كتابه : Recherches, Vol. I. App, XXXIV ، وأشار إليها المقرى فى الفصل الذى أورده عن الغزال وأخباره (نفح الطيب ج ١ ص ٤٤١ وما بعدها) . وقد كان البحث يتجه من قبل إلى أن رواية ابن دحية عن هذه السفارة قد تكون تكراراً أو تحريفاً للرواية الخاصة بسفارة الغزال إلى قسطنطينية ، ولكن يتضح من مراجعة رواية ابن دحية كاملة فى كتابه المنشور ، ودراسة المعالم الجغرافية التى أوردها عن طريق سفر الغزال وطريق عودته عن طريق شنت ياقب ومملكة جليقية – وعن موقع مملكة النورمان ، يتضح من ذلك كله أنه لا توجد الآن ذرة من الريب فى صحة القول بأن السفارة كانت فعلا إلى « بلاد المجوس » أو النورمان ، أو بعبارة أخرى إلى الدانماركة .

الفصل الأول

ولاية محمد بن عبد الرحمن بن الحكم
وطوالع الثورة الأولى

محمد بن عبد الرحمن . ظروف توليته والتمهيد لها . الثورة فى طليطلة . مسير محمد إلى طليطلة . استعانة الثوار بملكى ليون ونافار . موقعة وادى سليط . تحريضات النصارى المتعصبين . غزوة ألبة والقلاع . عود إلى محاربة طليطلة وإخضاعها . غزوة النورمانيين . عيثهم فى جنوبى الجزيرة . ارتدادهم من طريق الشمال . غزو المسلمين لنافار وألبة والقلاع . موسى بن موسى وسيادته فى الثغر الأعلى . الحرب بينه وبين أردونيو . مصرع موسى . ولده لب ومحالفته للنصارى . أخوته الثلاثة . غزو المسلمين لألبة والقلاع . هزيمة المسلمين . عود إلى غزو ألبة . هزيمة النصارى . الثورة فى ماردة وإخمادها . احتماء بنى قسى بملك النصارى . الثورة فى قواعد الثغر الأعلى . استيلاء بنى قسى على تطيلة وسرقسطة . سير محمد إلى الثغر الأعلى . استيلاؤه على تطيلة . غزوه لنافار . زحف المنذر إلى سرقسطة . غزوه لنافار ثانية . عوده إلى غزو الثغر الأعلى . افتتاح المنذر لحصن روطة واستيلاؤه على لاردة . خضوع سرقسطة . الخلاف بين بنى قسى . خروج محمد بن لب فى سرقسطة وتحالفه مع النصارى . سير المنذر إلى سرقسطة واستيلاؤه عليها . الهدنة بين المسلمين والنصارى . عود ابن مروان إلى الثورة فى ماردة . سير محمد لقتاله . تحالف ابن مروان مع ملك ليون . هزيمة جيش الأندلس وأسر قائده . عيث ابن مروان بنواحى الغرب . التجاؤه إلى ملك ليون . زحف المنذر على بطليوس وإحراقها . الثورة فى شنت برية وبنو ذو النون . ظهور ابن حفصون فى جبل ببشتر . بواعث الفتنة فى كورة ريه . غزو ابن حفصون لكورة ريه . محاربة ابن حفصون وأسره . فراره واستئنافه الثورة . سير المنذر لقتاله . محاصرة الحامة . وفاة محمد بن عبد الرحمن وعود المنذر إلى قرطبة . خلال محمد . عنايته بالجيش والأسطول والمنشئات الدفاعية . نظام البلاط فى عهده . حجابه ووزراؤه . أعماله الإنشائية . المسجد الجامع ومنية الرصافة . شخصه وخلاله . أدبه وبلاغته . عطفه على العلماء والأدباء . حمايته لبقى بن مخلد . نفوذ الفقهاء فى عهده . تسامحه نحو النصارى .

ترك عبد الرحمن بن عبد الحكم ، مملكة زاهرة موطدة الأركان ، تنعم بالاستقرار والهدوء . ولكن هذا الاستقرار الظاهر ، كان يحجب كثيراً من التيارات الخفية ، التى تهدد أمن المملكة وسلامتها . ذلك أن الهزات العنيفة التى توالت على الأندلس فى عهد عبد الرحمن ، تركت آثارها العميقة فى هذا الصرح الباذخ .

وكانت الثورات المحلية المتعاقبة ، وغزوات النورمانيين ، ودسائس النصارى المتعصبين ، كلها تنذر بأن الاستقرار المؤقت الذى تنعم به المملكة ، لم يكن سوى

الكتاب الثانى

الدولة الأموية فى الأندلس

القسم الثانى

عصر الإمارة

من محمد بن عبد الرحمن إلى عبد الله بن محمد وعهد الفتنة الكبرى

٢٣٨ – ٣٠٠ هـ : ٨٥٢ – ٩١٢ م

هدنة خادعة ، حققتها سياسة قوية حازمة . وكانت عناصر الإضطراب والغدر تجثم هنالك فى صدور المنافقين والطامعين ، وتنذر حكومة قرطبة وعرش بنى أمية بأعظم الأخطار .

تولى محمد بن عبد الرحمن الملك عقب وفاة أبيه ، فى الرابع من ربيع الآخر سنة ٢٣٨ هـ (٢٤ سبتمبر سنة ٨٥٢ م) ، ودخل القصر وأبوه مسجى على سريره ، فاقتعد لفوره سرير الملك ، وأخذ له البيعة الحاجب عيسى بن شُهيد . وكان يومئذ قد جاوز الثلاثين بقليل . وكان مولده فى شهر ذى القعدة سنة ٢٠٧ هـ (إبريل سنة ٨٢٣ م) . وأمه أم ولد تدعى بهير[1]. وكانت ظروف ولايته ممهدة من قبل ، وكان والده عبد الرحمن قد استخلفه بقصر الإمارة ، حينما اعتزم أن ينيبه عنه فى سنة ٢٢٦ هـ ، وهو يومئذ فتى فى العشرين من عمره ، ثم ولاه ثغر سرقسطة ، فضبطه وأحسن إدارته ، وصحب والده إلى بنبلونة فى غزوته المظفرة سنة ٢٢٨ هـ ، وقاد ميمنة الجيش ، وأثنى عليه والده فى كتاب الفتح ، فاشتهر اسمه بين الناس ، ثم ندبه أبوه بعد ذلك لمقابلة رسل ملك الفرنج قارله (كارل) بن ببين القادمين إليه . وأخيراً كلفه بالركوب إلى البلاط بصفة منتظمة ، ليرفع إليه الكتب الواردة بعد تلخيصها بمعرفته ، وقد تم هذا الإجراء بتوصية الحاجب عيسى بن شهيد ونصحه ، وذلك لتمكين أمر محمد ومكانته ، وتوهين ما كان يحاوله نصر الخصى الأثير لدى الأمير ، وحليف حظيته طروب المتغلبة عليه ، من ترشيح ولدها عبد الله لولاية العهد ، وتمكين أمره .

ولم يكن ذلك دون اختيار وتثبت . ذلك أن عبد الرحمن ، كان حسبما يحدثنا عيسى الرازى « قد كشف عن مذاهب ولده ، ولداً ولداً ، وعجم أخلاقهم اختباراً ، فوجد محمداً راجحاً لهم بخلاله » . فاختاره ليخلفه من بعده ، وأوعز إلى وزرائه وأكابر دولته . بأنه صاحب ولاية عهده ، والمفوض إليه الأمر من بعده ، وكلفهم جميعاً ، ومعهم القاضى وأهل الشورى ، بالركوب إليه وغشيان مجلسه أيام الجمع فى المسجد الجامع ، وأبدى على الجملة بما لا يدع مجالا لأى شك ، بإيثاره على جميع ولده ، وتفرده دونهم بخلافته فى ملكه .

وفضلا عن ذلك كله ، فقد كانت لمحمد عيون من الصقالبة بالقصر يطالعونه

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٩٦ .

بالأخبار فى وقتها . فلما توفى والده ، وافاه فى مساء نفس اليوم رسول من قبل حبيب الخصى ، يستدعيه إلى القصر بسرعة ، فبادر إلى القصر متنكراً وقد أخفى سلاحه تحت ثيابه ، خوفاً من دسائس أخيه ومنافسه عبدالله ، لتمكن نفوذ أمه داخل القصر . وكان الصقالبة قد كتموا موت الأمير ، وأغلقوا أبواب القصر ، وثارت بينهم مناقشات عنيفة حول ولاية العرش ، وانتهى الأمر بتفضيل محمد وتقرير استدعائه . وخرج محمد من غرفة أبيه المسجى إلى مجلس البيعة ، واستدعى إخوته التسعة والأربعين ، وعمومته ، وأهل بيته ، وعظماء المملكة . وأخذت له البيعة دون خلاف (يوم الجمعة الرابع من ربيع الأول ٢٣٨ هـ) ، ثم أخذت له بيعة الكافة فى المسجد الجامع أياماً متوالية[١] .

أوردنا هذه التفاصيل لنقف على نوع الإجراءات التى كانت تتخذ لتقرير ولاية العهد ، فى إمارة قرطبة الأموية ، ثم لنقف على الدور الذى أخذ يضطلع به الفتيان الصقالبة منذ الآن فصاعداً فى مسألة خلافة العرش ، وهو دور كان له أثره الحاسم فى كثير من المواطن .

وكان محمداً أميراً ذكياً فطناً بالأمور[٢] ، تولى والأفق الذى ظلل عصر أبيه العظيم مازال يحتفظ بلمعانه ، وملوك اسبانيا النصرانية يحسبون حسابه ، ويشعرون بأنه خلف كفء لأبيه ، وملوك العدوة القريبين من الأندلس يخطبون وده ، وملك الفرنج يسعى إلى عقد السلم معه .

وأقر محمد حاجب أبيه عيسى بن شُهيد ، ومعظم الوزراء الذين كانوا يتولون خدمة أبيه على خططهم ومراتبهم ؛ وصنع نظاماً جديداً للوزارة ، تتميز فيه الخطط الرفيعة على غيرها ، ويمتاز فيه الوزراء بنوع من التعظيم والتجلة ، وقدم الوزراء من أهل الشام على غيرهم من الأندلسيين والبربر ، وأعلاهم فى الجلوس على أرائكهم ببيت الوزارة . وكان بنفسه يشرف على أعمال الوزارة والكتاب ، ويدقق فى أعمالهم وتصرفاتهم وحساباتهم[٣] . ولما توفى عيسى بن شهيد ، خلفه فى الحجابة عيسى بن الحسن بن أبى عبدة ، وكان بالرغم من رثاثة هيئته وزيراً قوياً ،

---

(١) ابن حيان عن أحمد بن محمد الرازى ، وعيسى بن أحمد الرازى ، ومعاوية بن هشام الشبينسى ؛ مخطوط القرويين اللوحات ٢١٥ إلى ٢٢٠ ب .

(٢) ابن الأثير ج ٧ ص ١٤١ .

(٣) ابن حيان عن أحمد الرازى ؛ مخطوط القرويين لوحة ٢٢٣ .

وافر الفطنة والذكاء ، صائب الرأى والتقدير . وكان هاشم بن عبد العزيز من بين وزراء الأمير محمد، أشدهم خصومة ومنافسة للحاجب ابن أبى عبدة ، وكان فى نفس الوقت أحب وزراء الأمير إليه ، وأكثرهم حظوة لديه ، فلم يلبث أن غلب نفوذه على سائر الوزراء . ويقول لنا ابن عبد البر إن هذه الحظوة التى استأثر بها الوزير هاشم لدى الأمير محمد، كان لها أثر سيئ فى تصرفات الأمير ، وأنه أى هاشم قد أفسد عليه أمره ، « فشرّهه ، وصلفه، وحمله على غير المنهج من محمود طرقه ، وعدل عن اختيار ثقات العمال ، من الشيوخ والكهول أولى النهى والأصول ، إلى الأحداث من أولى الشر والخيانة ودناءة الأصول . فلم يلبث الأمر أن فسد بذلك إلى أبعد حال .. فنجمت الفتنة بأكثر البلاد، وكثر فى الأرض الفساد فى المملكة»[1]. وفى أقوال ابن عبد البر عن هذا التحول فى سياسة الأمير محمد وفى أساليب حكمه مبالغة ، ينقضها ما أورده صاحب البيان المغرب وغيره عن صفاته[2]. وعلى أى حال فسوف نرى أى دور خطير يلعبه الوزير هاشم بن عبد العزيز ، الذى تولى الحجابة فيما بعد ، فى ميدان الحرب والسياسة فى عهد الأمير محمد .

وقد شاء القدر أن يكون عهد محمد بداية عصر من أخطر عصور التاريخ الأندلسى ، وأشدهم خطراً على ملك بنى أمية ، وعلى دولة الإسلام فى الأندلس . ذلك أنه ما كاد يتبوأ العرش ، حتى بدأت طلائع تلك الثورة الجارفة ، التى قدر له أن يضطلع بكفاحها طوال حكمه ، الذى امتد خمسة وثلاثين عاماً ، والذى يصفه ابن حيان بقوله : « والمشوب آخره بالتنكيد ، المنصرم عن فرقة الجماعة ، ونجوم النفاق بكل جهة » .

ففى منتصف ربيع الثانى سنة ٢٣٨ هـ ، يعنى لأيام قلائل فقط من وفاة عبد الرحمن ، وولايه محمد ، تحرك أهل طليطلة التى مافتئت تفيض بعوامل الثورة . وكان بها عندئذ سعيد بن الأمير محمد ، والعامل عليها حارث بن بزيع . وكان جماعة من المارقين وأهل الشر ، قد اجتمعوا فى الهضبة القريبة من المدينة المسماة « جبل الأخوين » بزعامة مسوقة بن مطرّف ، وهو أحد الزعماء الخوارج الذين فروا من قرطبة ، فلما وقفوا على وفاة الأمير عبد الرحمن ، كاتبوا أهل طليطلة وحرضوهم على الوثوب بسعيد ومن معه . فاضطرمت الثورة داخل المدينة ،

---

(١) نقله ابن حيان ، مخطوط القرويين اللوحة ٢٢٢ أ .

(٢) راجع البيان المغرب ج ٢ ص ١١١ .

وساعدهم ابن مطرف بحشوده من الخارج ، وانتهى الأمر بهزيمة جند الأمير ، واستطاع سعيد أن يغادر المدينة ، ولكن الثوار أسروا عاملها حارثاً ، ورفضوا إطلاق سراحه حتى أطلقت حكومة قرطبة رهائنهم المعتقلة هناك(١). وفى صيف العام التالى (سنة ٢٣٩ هـ — ٨٥٣ م) بعث الأمير محمد أخاه الحكم فى جند الصائفة إلى قلعة رباح ، وكانت قد أقفرت وخربت وغادرها معظم أهلها ، عقب مهاجمة أهل طليطلة الخوارج لها ، وقتلهم كثيراً من أهلها ، فاحتلتها جند الأمير ، وقامت بإصلاح أسوارها ، واستدعى أهلها الفارون وأمنوا ؛ وفعل الحكم مثل ذلك بحصن شندلة ، الواقع على النهر المسمى بهذا الإسم **Jandula** ، وهو من أفرع الوادى الكبير ؛ وجالت جند الأمير فى تلك المنطقة تطهيراً من الثوار ، وخرجت منها حملة سارت جنوباً ، فلقيتها عصابات الخوارج من أهل طليطلة فى فحص أندوجر ، ووقعت بين الفريقين معركة عنيفة هزم فيها جند الأمير ، وردوا بخسارة فادحة (شوال سنة ٢٣٩ هـ) . وعلى أثر ذلك خشى أهل مدينة جيّان القريبة على أنفسهم من عيث الخوارج ، فغادرها كثير منهم إلى الجبال ، وابتنى الأمير محمد لهذا السبب حصن «أندة» على مقربة جيان ، وضم إليه العرب المقيمين على الطاعة ، وسمى المكان لذلك «أندة العرب»(٢) .

وعندئذ شعر محمد بما يهدد العاصمة من الأخطار ، وأراد أن يلقى على ثوار طليطلة ، درساً عميق الأثر ، فسار إليها فى المحرم سنة ٢٤٠ هـ (يونيه ٨٥٤ م) على رأس قوة كبيرة . وكانت أول حملة يقودها بنفسه بعد تبوئه الملك . وكان عماد الثورة فى طليطلة جمع كبير من المولدين والنصارى ، الذين تحركهم روايات المتعصبين ، عن الاضطهاد الذى يلقاه إخوانهم فى قرطبة ، وكانوا يتطلعون دائماً إلى عون ملك النصارى ؛ فلما استشعروا عزم محمد على قتالهم ، بادروا بالاستغاثة بأردونيو (أردن) ملك ليون ، وكذلك بملك ناڤار ؛ وأمدهم أردونيو بقوة على رأسها الكونت غاتون(٣). وكان تدخل النصارى على هذا النحو لتأييد الثورة ضد حكومة قرطبة ، عاملا فى إذكاء حماسة المسلمين ، فهرعت جموع كبيرة إلى جيش الأمير ، ومنهم كثير من الفرسان الأشراف وذوى الحسب ، وسار محمد صوب

(١) ابن حيان عن الرازى فى مخطوط القرويين لوحة ٢٥٩ أ .

(٢) مخطوط القرويين لوحة ٢٥٩ ب .

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٠ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٩٧ . ويقول صاحب البيان إن الكونت غاتون هو أخ الملك ليون .

طليطلة فى بعض قواته ، وترك بقية جيشه الكثيف مستتراً بالتلال التى تظلل وادى سليط ، وهو الوادى الذى يخترقه النهر المسمى بهذا الإسم Guazalete ، وهو أحد أفرع التاجُه الجنوبية ، فلما رأى أهل طليطلة قلة الجيش المحاصر ، خرجوا لقتاله ومعهم حلفاؤهم النصارى وهم على ثقة من الظفر ، فارتد محمد بجنوده نحو وادى سليط متظاهراً بالهزيمة ، وعندئذ برزت قوات الأندلس من مكامنها ، وأطبقت على الثوار وحلفائهم النصارى ، وكانت موقعة هائلة مزقت فيها جموع الطليطليين والإسبان فى ساعات قلائل من الصباح إلى الضحى ، وقتل منهم مقتلة عظيمة تقدرها الرواية الإسلامية بأحد عشر ألفاً ، وقيل بل عشرين ألفاً ، وأسر منهم كذلك عدد جم ، بينهم كثير من القساوسة وقد أعدموا على الفور ، ورصت رؤوس القتلى ، وأذن فوقها لصلاة الظهر . وكان نصراً عظيماً . وفى هذه الموقعة يقول شاعر العصر عباس بن فرناس :

ومؤتلف الأصوات مختلف الزحف ... لهـوم الفلا عبل القبائل ملتف

إذا أومضت فيه الصوارم خلتها ... بروقاً تراءى فى الغمام وتستخفى

كأن ذرى الأعلام فى ميلانها ... قراقير فى يم عجزن عن القذف

بكى جبلا وادى سليط فأعولا ... على النفر العبدان والعصبة الغلف

يقول ابن يوليس لموسى وقد ونى ... أرى الموت قدامى وتحتى ومن خلفى

قتلنـا لهم ألفاً وألفاً ومثلهـا ... وألفاً وألفاً بعد ألف إلى ألف

سوى من طواه النهر فى مستلجه ... فأغرق فيه أو تهدهد من جرف

لقد نعمت فيه غزاة نسورنا ... وسمعت الدقات قصفاً على قصف[(١)]

على أن الفتنة فى طليطلة لم تهدأ ولم تخمد ، فقد استمر تحريض النصارى المتعصبين فيها على أشده ، وأضحت المدينة الثائرة موئلا لطائفة من القسس المتعصبين مثل أولوخيو وصحبه ، يبثون دعاياتهم المضطرمة فى طليطلة وما جاورها من الأنحاء ، ويصورون مصير النصارى فى ظل الحكم الإسلامى بأشنع الصور ، ويدعون إلى التحرر من الاضطهاد الدينى والاجتماعى ، وكان صدى هذه

---

(١) ينقل إلينا ابن حيان عن موسى الرازى تفاصيل هذه الموقعة — مخطوط القرويين لوحة ٢٦٠ أ وب و ٢٦١ أ . وراجع البيان المغرب ج ٢ ص ٩٧ و ١١٤ . وكذلك : Dozy Histoire, V.I. p. 355

الدعوة يتردد قوياً فى العاصمة الأندلسية ، ويبث القسس تحريضهم ودعاياتهم المسمومة ، مثلما كانوا يفعلون أيام عبد الرحمن بن الحكم[1]. وكان محمد يرقب هذه الفتنة حذراً من عواقبها ، وعواقب تمرد المدينة الثائرة ، ومن ثم فقد لبث متأهباً لمقارعتها ، وشحن قلعة رباح وطلبيرة على مقربة منها بالجند والعدد .

وسير الأمير محمد كذلك الصوائف والحملات الغازية إلى الثغر الأعلى . ففى سنة ٢٣٩ هـ (٨٥٣ م) سير جيشاً بقيادة موسى بن موسى بن قسىّ والى تطيلة إلى ألبة والقلاع . وكان موسى أيام الأمير عبد الرحمن ، من زعماء الثورة فى الشمال ، وتحالف مع النصارى حسبما تقدم ، وقاتله عبد الرحمن حتى تمكن من إخضاعه . ولكنه عاد فى أواخر عهده إلى سابق مكانته من زعامة الثغر الأعلى ، واستطاع أن يوطد استقلاله فى تطيلة وما جاورها ، مع التظاهر فى نفس الوقت بالولاء لحكومة قرطبة ، اتقاء لخصومتها . فسار إلى ألبة والقلاع وعاث فيها ، وهزم النصارى فى عدة مواقع ، وافتتح بعض الحصون ، ثم عاد بعد ذلك فاتجه صوب ثغر برشلونة ، وانتزع بعض حصونه من أيدى النصارى ، وتضع بعض الروايات تاريخ هذه الغزوة فى سنة ٢٤٢ هـ (٨٥٦ م) . بيد أنه يبدو من أقوال الرازى أنها وقعت قبل سنة ٢٤١ هـ[2] .

وفى صيف سنة ٢٤١ هـ (٨٥٥ م) سار محمد بنفسه إلى ألبة والقلاع ، وقد كتب إلى موسى بن موسى وأهل الثغور بالاحتشاد والسير فى حملته ، فعاث فى بسائط ألبة والقلاع ، وافتتح كثيراً من حصون النصارى . وفى العام التالى بعث موسى بن موسى إلى أحواز برشلونة ، فغزاها وخرب برشلونة وافتتح بعض حصونها ، وأسر بعض أمرائها[3] .

بيد أن اهتمام الأمير لبث فى الوقت نفسه بالأخص موجهاً إلى طليطلة ، فبعث ولده المنذر إلى المدينة الثائرة فى قوة كبيرة فحاصرتها وعاثت فى أحوازها (٢٤٢هـ) ، ولم يجرأ الثوار هذه المرة على مغادرة مدينتهم . ولكنهم خرجوا فى العام التالى إلى طلبيرة لمقاتلة الحامية الأندلسية بها ، فخرج إليهم قائدها مسعود بن عبد الله ،

---

(١) يفيض دوزى فى شرح أدوار هـذه الفتنة الدينية وأعمال دعاتها : **Dozy : Hist.; V. I. p. 356—362**

(٢) مخطوط القرويين لوحة ٢٦١ ب .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٩٨ .

وأوقع بهم وقتل منهم عدة مئات أرسلت رؤوسهم إلى قرطبة . وسارت جند الصائفة فى الوقت نفسه إلى طليطلة ، فنازلتها وعاثت فى أحوازها ، وانتسفت زروعها وأقواتها .

ورأى الأمير محمد أن يتابع معاقبة أهل طليطلة . فخرج إليهم بنفسه فى صيف سنة ٢٤٤هـ (٨٥٨م) ، وحاصر المدينة الثائرة ، وتأهب أهلها لقتاله بالرغم مما أصابهم من نقص فى القوى ، وشح فى الأقوات ، واعتمدوا على حصانة مدينتهم . ولجأ محمد إلى الحيلة فهدم مهندسوه قواعد القنطرة الكبيرة مع تركها قائمة ثم انسحب بجنوده ؛ وهنا خرج أهل طليطلة لقتاله ، فلما احتشدوا على القنطرة سقطت بهم فى نهر التاجه وغرق منهم عدد جم[1] . ولم يترك محمد هذه المرة وسيلة رائعة إلا استعملها لسحق المدينة الثائرة ، فخرب حصونها ومعالمها ، وأوقع بأهلها قتلا وتشريداً ، حتى اضطروا إلى طلب الأمان والصلح ، وأذعنوا للخضوع والطاعة ، وهم يعتزمون النكث فى قرارة أنفسهم متى سنحت الفرص (٢٤٥ هـ — ٨٥٩ م) .

وهكذا لبثت طليطلة عصراً تضنى حكومة قرطبة بتمردها وثوراتها المتوالية ؛ وكانت حاضرة القوط القديمة تشعر دائماً بقوتها ومنعتها الطبيعية ، وكانت فوق ذلك مثوى التيارات النصرانية الخطرة حسبما بينا ، تنساب إليها من نصارى الشمال ، ومن النصارى المعاهدين بقرطبة ، ومن أهلها أنفسهم . والواقع أن طليطلة كانت بوعورة موقعها على المنحدر الصخرى الممتد نحو نهر التاجه ، وإحاطة النهر بهذا المنحدر الوعر ، ثم بحصونها القوية ، وأسوارها العالية الضخمة ، من أمنع مدن العصور الوسطى . وما تزال إلى اليوم حين نتأملها ونتجول فيها ، تذكرنا بموقعها الصعب ، وطرقها الصخرية الوعرة ، وبقية أسوارها وحصونها المنيعة ، بما كان لها من سابق الحصانة والقوة فيما خلا من العصور .

وهكذا أخمدت ثورة المولدين والنصارى المعاهدين فى طليطلة إلى حين ؛ وتأهب محمد فى الوقت نفسه لقمع شغب النصارى المتعصبين فى قرطبة وغيرها ،

---

(١) يقدم إلينا ابن حيان عن هدم القنطرة قصة أخرى ، فيقول إن جنود محمد حاولوا هدم القنطرة تحت أنظار أهل المدينة ، وأنهم سخروا من هذه المحاولة ، وأيقنوا بعقمها . ثم خرجوا للقتال ، واحتشد الكثير منهم فوق القنطرة ، فانهارت تحت أقدامهم وهوت بمن فوقها إلى النهر ، وهدمت صخورها عليهم من كل ناحية (مخطوط القرويين لوحة ٢٦٢ أ) .

وإخماد نزعتهم الثورية الخطيرة . وحوكم القس أولوخيو الذى أشرنا من قبل إلى دعايته وتحريضه أيام عبد الرحمن ، وكان مايزال معقد الدسائس الدينية ، وقضى بإعدامه كما قضى بإعدام صاحبته ومعاونته الفتاة ليوكريسيا (مارس سنة ٨٥٩ م) . ورأى النصارى فتنتهم تنهار فركنوا إلى السكينة ، وخبت جذوة تعصبهم ، التى لبثت أعواماً طويلة تضطرم فى قرطبة ، ولم يبق من حماستهم سوى الذكرى[١] .

ولم يكد ينتهى الأمير محمد من إخضاع طليطلة ، حتى دهم الأندلس خطر النورمانيين مرة أخرى. فى نفس هذا العام (٢٤٥هـ — ٨٥٩ م) انحدر النورمانيون (وهم الأردمانيون أو المجوس كما تسميهم الرواية الإسلامية) فى سفنهم نحو شواطئ جليقية ، وعاثوا فى شاطئ اسبانيا الغربى . وتقدر الرواية الإسلامية أسطول النورمان فى هذه المرة باثنتين وستين مركباً ؛ وطاردتهم السفن الأندلسية ، وكانت دائماً على قدم الأهبة تجوس خلال المياه الغربية بصفة مستمرة استعداداً لرد أولئك الغزاة الخطرين ، مذ فاجأوا الأندلس بغاراتهم المخربة أيام عبد الرحمن . ووصلت بعض سفن النورمانيين جنوباً حتى تجاه مدينة باجة ، وهنالك استطاعت السفن الأندلسية أن تقضى على طلائع الغزاة ، وأن تنتزع سفينتين من سفنهم المحملة بالغنائم والسبى ، بيد أنهم انقضوا على الشواطىء الجنوبية ، ووصلوا إلى مصب نهر الوادى الكبير ، ثم انحدروا جنوباً حتى مياه الجزيرة الخضراء .

وفى تلك الأثناء كانت القوات الأندلسية قد سارت إلى الغرب بقيادة الحاجب عيسى بن أبى الحسن بن أبى عبدة ، وهرع الناس إلى جيش الأمير من كل صوب ، وتقدم الأسطول بقيادة أميرى البحر حشحاش وابن شكوح ، وقد عبىء أحسن تعبئة ، وجهز بالأنفاط وفرق الرماة الكثيفة ، ورد الغزاة أولا عن إشبيلية بعد عدة معارك برية وبحرية . ثم نشبت بين الفريقين بعد ذلك معركة بحرية شديدة تجاه شاطئ شذونة ، وغنم المسلمون فى البداية مركبين آخرين ، ولكن السفن النورمانية تكاثرت على جناح الأسطول الذى يقوده حشحاش ، وغلبت عليه ، وقتل أمير البحر المسلم فوق سفينته ، ثم انحدر النورمانيون صوب الجزيرة الخضراء واقتحموها ، وأحرقوا مسجدها الجامع ، وعاثوا فيها سفكاً ونهباً ، وسارت

---

(١) Dozy : Hist, V. I. p. 361—362

بعض سفنهم إلى شواطئ العدوة (عدوة المغرب) وعاثت فيها ، ثم نزلوا بشاطئ الأندلس الجنوبى ، وسارت سفنهم قبالتهم على ساحل تدمير حتى أوريولة ، فدخلوها ، وعاثوا فى تلك الأنحاء نهباً وسبياً ، واشتبكوا مع القوات الأندلسية فى عدة معارك برية وبحرية عنيفة ، حطمت فيها بعض سفنهم ، وقتل كثير من المسلمين ، واستمر عيث النورمانيين على هذا النحو أشهراً حتى خبت فورتهم ، وفقدوا كثيراً من سفنهم . فارتدوا نحو الشمال على طول شواطىء اسبانيا الشرقية ، ونفذت منهم قوة خلال نهر إبره إلى ناڤار ، واقتحموا عاصمتها بنبلونة وأسروا ملكها غرسية ، ولم يطلقوه إلا لقاء فدية كبيرة ، وأغارت قوات أخرى منهم على الجزائر الشرقية وشواطئ پروڤانس حيث عبروا مصب الرون ، وخربوا آرل ونيمة وڤالانس .

وهكذا لم تكن الغزوة النورمانية فى هذه المرة مفاجأة مثلما كانت الغزوة الأولى ، ولم يكن عيث الغزاة على نفس النطاق الواسع . وهذا ما يسجله لنا ابن حيان فى ختام حديثه عنها ، إذ يقول : « فلم يكن لهم فى هذه الكرّة الإنبساط فى البحر ، والإضرار بأهل السواحل ما جرت به عادتهم ، ولم يجدوا فى السواحل مطمعاً لشدة ضبطها ، ولاقوا مع ذلك من البحر هولا عطبت له من مراكبهم أربعة عشر مركباً بناحية البحيرة من الجزيرة ، فنكبوا عن حائط الأندلس ، واعتلوا إلى جهة الفرنجة ، فلم يلقوا ظفراً ، وأسرعوا الانصراف إلى بلدتهم بالخيبة ، فلم تكن لهم بعد بالأندلس إلى اليوم عودة »(١) .

وفى العام التالى أعنى سنة ٢٤٦ هـ (٨٦٠ م) بعث محمد حملة إلى الولايات الشمالية بقيادة حاكم طرطوشة . ويقول لنا ابن حيان إن الأمير محمد هو الذى غزا بالصائفة بنفسه فى تلك السنة . وكان غرسية ملك ناڤار ، قد تحالف عقب انطلاقه من أسر النورمان مع أردونيو ملك ليون ، وأغارت قواتهما المتحالفة على الأراضى الإسلامية . وعلى أى حال فقد زحفت القوات الأندلسية على ناڤار ، ولم تكن قد

---

(١) تختلف الرواية الإسلامية فى تاريخ هذه الغزوة النورمانية الثانية لشواطىء الأندلس ، فيضعه الرازى فى سنة ٢٤٥ هـ (٨٥٩ م) . ويتابعه فى ذلك ابن الأثير وابن عذارى . ويضعها هشام ابن معاوية الشبينسى فى سنة ٢٤٧ هـ (٨٦١ م) ، وقد أخذنا بالرواية الأولى لأنها أرجح وأكثر اتفاقاً مع سير الحوادث . راجع فى تفاصيل الغزوة ، ابن حيان فى مخطوط القرويين لوحة ٢٦٣ أ و ب و ٢٦٤ أ ، والعذرى فى « الأوراق المنثورة من ترصيع الأخبار » ص ١١٨ و ١١٩ ، وابن الأثير ج ٧ ص ٢٨ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٩٩ .

أفاقت بعد من ضربة النورمانيين ، وغزت بنبلونة وخربت حصونها . ولم تقو جموع غرسية على رد المسلمين ، واستمر المسلمون بضعة أسابيع يخربون بسائط نافار وينتسفون قراها وحصونها ، وكان من بين الأسرى فرتون ولد غرسية ، فأخذ إلى قرطبة حيث اعتقل زهاء عشرين عاماً(١) .

وفى صيف سنة ٢٤٧ هـ (٨٦١ م) سارت حملة أندلسية أخرى إلى ألبة والقلاع . وكان موسى بن موسى قد طلب إلى محمد أن يكون طريق الحملات الغازية عن غير منطقته ، نظراً لما يتجشمه فى مقارعة النصارى من جهد ، وما يصيب أراضيه من الدمار ، فأجابه الأمير إلى طلبه ، وسارت الحملة من طريق آخر ، وعاثت فى أراضى النصارى .

وكان موسى بن موسى بن قسيّ يومئذ ، قد بسط نفوذه على بسائط قواعد الثغر الأعلى ، وأصبح سيداً لتطيلة ووشقة وسرقسطة وأحوازها . وكان هذا الزعيم القوى الذى يرجع حسبما أسلفنا إلى أصل نصرانى ، وله مصاهرة وقرابة مع الأمراء النصارى ، ينتهز كل فرصة لتدعيم استقلاله ، وكان يتشح بلقب الإمارة ، ولم يكن يدين لحكومة قرطبة إلا بنوع من الولاء الإسمى . وكانت علائقه مع أردونيو ملك ليون جاره من الغرب ، تتردد بين الخصومة والتحالف وفقاً للظروف . وكان أردونيو ينظر إلى اتساع ولايته من ناحية الغرب بعين القلق ، وموسى من جانبه يحرص على تحصين قواعده وحدوده ؛ ففى سنة ٢٤٨هـ (٨٦٢م) سار موسى فى قواته إلى الغرب لتحصين قواعده الغربية ومعه صهره غرسية أمير نافار ؛ وحاول أردونيو من جانبه أن يحبط هذه الحركة ، فهاجم بعض الحصون التابعة لموسى وفى مقدمتها حصن « البلدة » الواقع على نهر إبره على مقربة من قلهرّة ، ونشبت بين الفريقين معركة جرح فيها موسى جراحاً خطيرة ، وهزمت قواته وقتل منها عدد كبير من المسلمين والنصارى ، وقتل صهره غرسية ، وهدم أردونيو حصن البلدة وغيره من الحصون التى تحمى أراضى ابن قسى ، ولم يمض سوى قليل حتى توفى موسى نفسه متأثراً بجراحه ، وكانت وفاته نذيراً بتطور الحوادث فى الثغر الأعلى .

وذلك أن موسى بن موسى كان بالرغم من استقلاله عن حكومة قرطبة ،

---

(١) راجع البيان المغرب ج ٢ ص ٩٩ و ١٠٠ ، ومخطوط القرويين اللوحة ٢٦٣ أ .